

سُورَةُ الْبَلَدِ

حِينَ يَفْتَحُ الْإِنْسَانُ عَقْبَةَ نَفْسِهِ
وَيَبْلُغَ مَقَامَ الرَّحْمَةِ

تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الْبَلَدِ

حِينَ يَقْتَحِمُ الْإِنْسَانُ عَقْبَةَ نَفْسِهِ وَيَبْلُغُ مَقَامَ الرَّحْمَةِ

تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السورة التي تقيس الإنسان بما يتجاوزُه لا بما يمتلكه

ليست سورة البلد وصفًا لمدينةٍ فحسب، ولا حديثًا عابرًا عن مشقة الحياة، ولا موعظةً جزئيةً تحضُّ على إطعام جائع أو تحرير مستضعف؛ إنها بناء قرآني بالغ الإحكام، يأخذ الإنسان من المكان الذي يسكنه إلى الحقيقة التي تسكنه، ومن البلد الذي يتحرك في شوارعه إلى العقبة المستترة في أعماقه، ومن وهم القوة الذي يصنعه المال إلى قوة الرحمة التي تصنع الإنسان. تبدأ السورة بقسمٍ يملأ المكان مهابة، ثم تستدعي علاقة الوالد بما ولد، ثم تضع الإنسان أمام أصل تجربته الوجودية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ فكأنها، قبل أن تسأله ماذا فعل، تكشف له أولاً طبيعة الطريق الذي وضع فيه، وتخبره أن الحياة لم تُبَن على الراحة المطلقة، وأن الإنسان لم يُخلق ليعبرها نائم الروح، معطل الإرادة،

مستسلماً لشهواته ومخاوفه، بل خُلق في معاناة تستخرج مكنونه، وفي مجاهدة تكشف معدنه، وفي امتحان لا يظهر فيه صدقه إلا حين يصعد.

وسورة البلد، على قصر آياتها، ترسم خريطة كاملة للإنسان: أصله، وكبده، وغروره، وماله، وجوارحه، وطريقاه، وعقبته، ومجتمعه الإيماني، ومصيره الأخير. إنها لا تنظر إلى الإنسان بوصفه جسداً يبحث عن بقائه، بل بوصفه أمانةً تبحث عن معناها؛ ولا تقيس نجاحه بما جمعه، وإنما بما اقتحمه؛ ولا تسأله كم أنفق ليرى، بل فيم أنفق، ولمن مدَّ يده، وأيَّ قيدٍ فكَّ، وأيَّ جوعٍ دفع، وأيَّ يتيمٍ آوى، وأيَّ مسكينٍ قَرَّب، وأيَّ قلبٍ ثَبَّت بالصبر، وأيَّ روحٍ وسَّع عليها بالرحمة.

إنها سورة تنقل مفهوم البطولة من الصخب إلى البذل، ومن الاستعلاء على الناس إلى الانتصار على النفس، ومن امتلاك القدرة إلى تسخيرها في الخير. فالبطل في ميزان السورة ليس من ظنَّ أن لن يقدر عليه أحد، ولا من تباهى بأنه أهلك مَالاً لُبُداً، ولكنه الذي رأى العقبة ثم لم يرجع، وشعر بخشونة الصعود فلم يختار السهل المنحدر، وحمل من الإيمان ما يجعله يفك رقبة، ويطعم في يوم ذي مسغبة، ويصبر مع

الصابرين، ويرحم مع الراحمين. بذلك تُعيد السورة تعريف القوة: ليست القوة أن تُشعر الضعفاء بضعفهم، بل أن تجعل قدرتك باباً لنجاتهم؛ وليست العظمة أن تكون فوق الناس، بل أن تتحني لرفع من أثقلتته الحياة.

وسوف يسير هذا الكتاب مع آيات السورة سيراً يجمع بين التفسير والتدبر، دون أن يخلط بينهما أو يجعل التأمل بديلاً عن المعنى القرآني المنضبط. سنبدأ من دلالة اللفظ في سياقه، ومن اتصال الآية بما قبلها وما بعدها، ومن الوحدة الموضوعية التي تشدُّ السورة من قسمها الأول إلى مشهدها الأخير، ثم ننفث على ما تهبه الآيات من دلالات إيمانية وإنسانية وحضارية، محافظين على الحد الفاصل بين ما تدل عليه الآية دلالةً ظاهرة، وما يستنبطه المتدبر من هداياتها واتساع إشاراتها.

فالقرآن لا يُقرأ بمشاعر منفصلة عن اللغة، ولا بعقل منفصل عن الخشوع، ولا بتاريخ منفصل عن الحاضر؛ وإنما يُستقبل بقلب يتدبر، وعقل يتبصر، ولسان يعرف للعربية قدرها، ونفس تقف أمام كلام الله موقف المتعلم الذي يريد الهداية لا موقف المتكلف الذي يريد أن

يُجمل النص ما ليس فيه. ومن هنا لن تكون رحلتنا مع سورة البلد بحثاً عن زخرفة تُضاف إليها، فالقرآن مستغنٌ بجلاله عن زخارفنا، وإنما ستكون محاولةً لفتح النوافذ التي تحول العادةُ بيننا وبينها، حتى نستعيد دهشة الاستماع الأول، ونرى كيف تتسع عشرون آيةً لتشمل مأساة الإنسان كلها، ومسؤوليته كلها، وطريق نجاته كله.

وستنأمل السورة من خلال حركتها الداخلية المتصاعدة؛ فهي تبدأ بالبلد، والبلد فضاء واسع، ثم تتجه إلى الإنسان، ثم إلى ظنه الكامن، ثم إلى لسانه وشفتيه وعينيّه، ثم إلى الطريقين اللذين أراهما الله له، ثم إلى العقبة القائمة أمام إرادته، ثم إلى الضعفاء الذين يمتحن بهم صدقه، ثم إلى الجماعة المؤمنة المتواصية بالصبر والمرحمة، وأخيراً إلى المصير: ميمنة أو مشأمة، رحمة أو نار مؤصدة. وكأن مساحة السورة تضيق شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى للإنسان مهرب من الاختيار؛ يبدأ في بلد يسعه، وينتهي أمام باين لا ثالث لهما.

والمفارقة الكبرى في السورة أن الإنسان يعيش في الكبد، لكنه كثيراً ما يختار كبدًا لا ينجيّه من شيء: يتعب في الجمع، ويتعب في

الحراسة، ويتعب في المفاخرة، ويتعب في التنافس، ثم لا يبقى من تعبهِ إلا قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾. أما الطريق المنجي فهو شاق كذلك، غير أن مشقته تصعد بصاحبها ولا تستنزفه عبثاً؛ إنها مشقة تحرير الإنسان من أنانيته، ورفع الآخرين من عثرتهم، وترويض النفس على الإيمان والصبر والرحمة. ليست المسألة، إذن، اختياراً بين تعب وراحة، فالحياة نفسها كبد؛ وإنما هي اختيار بين تعب يضيع، وتعب يبقى، وبين ألم يحاصر الروح، وألم يلد منها إنساناً جديداً.

وفي قلب السورة تقف كلمة واحدة ذات جرس مهيّب: العقبة. إنها ليست حجراً في طريق الجسد، بل امتحاناً لإرادة الروح. كل إنسان له عقبته التي يعرفها، وإن أخفاها عن الناس: شحٌّ ينبغي اقتحامه، وكبر ينبغي كسره، وشهوة ينبغي ضبطها، ومظلمة ينبغي ردها، وخصومة ينبغي أن تُطهَّر من الهوى، وضعيف ينبغي أن تمتد إليه اليد، وحقٌّ ينبغي أن يُقال مع ما يكلفه قوله. وقد يُمضي المرء عمره كله وهو يدور أسفل عقبته، يصف الطريق، ويمدح الصاعدين، ويتحدث عن الفضائل حديث العارفين، لكنه لا يضع قدمه على السفح. والسورة لا تحتفي بمن عرف العقبة، بل بمن اقتحمها؛ لأن الحقائق الأخلاقية لا تصبح

جزءاً من الإنسان بمجرد إدراكها، وإنما حين يدفع ثمنها، ويتجاوز بها ثقل نفسه.

ثم إن الاقتحام القرآني ليس بطولةً فردية معزولة، تنتهي عند فعل خيري عابر؛ ولذلك تصل السورة أعمال التحرير والإطعام بالإيمان والتواصي: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾. فالفعل الإنساني في القرآن لا يفصل عن أصل التوحيد، والإيمان الصحيح لا يفصل عن أثره في الإنسان. وبينهما تنشأ جماعة لا يكتفي أفرادها بأن يصبر كل واحد منهم منفرداً، أو يرحم في عزلة، بل يتواصون؛ أي يحمل بعضهم بعضاً على الثبات، ويحرس بعضهم في بعض شعلة الرحمة من رياح القسوة. وهنا ينتقل القرآن من صناعة الفرد الرحيم إلى صناعة المجتمع المتراحم، ومن النجاة الذاتية إلى المناخ الأخلاقي الذي يعين الناس على النجاة.

إنشاء، إذ ندخل عالم سورة البلد، ندخل إلى ميزان لا يسمح للادعاءات أن تبقى معلقة في الهواء. فالعين التي منحها الله للإنسان ليست مجرد أداة للنظر، بل مسؤولية عما يرى؛ واللسان ليس وسيلةً

للبيان وحده، بل شاهد على ما يقول؛ والشفطان ليستا عضوين في الجسد
فحسب، بل حدّان يخرج من بينهما الصدق أو الكذب، والرحمة أو
الأذى، والشكر أو الجحود. والهداية إلى النجدين لا تعني أن الإنسان ترك
تأثراً في ظلام وجوده، بل تعني أن الحجة قد قامت، وأن الطريق قد بان،
وأن الذي يختار المنحدر لا يستطيع أن يتهم السماء بأنها لم تره موضع
الصعود.

هذه السورة لا تدعونا إلى احتقار الدنيا، ولكنها تحررنا من الوهم
الذي يجعلها ميداناً لاستعراض القدرة. ولا تدعونا إلى تجيّد الألم لذاته،
ولكنها تكشف أن الكبد إذا اقترن بالإيمان صار معبراً للنضج، وإذا
انفصل عن المعنى صار طاحونةً تسحق العمر. ولا تجعل الفقر فضيلةً في
ذاته، وإنما تجعل طريقة تعاملنا مع الفقير امتحاناً لفضيلتنا. ولا تصوّر
الرحمة انفعالاً رقيقاً بلا أثر، بل تجعلها اقتحاماً؛ أي حركةً مكلفةً في
عكس اتجاه الأنانية المستقرة في النفس وفي المجتمع.

من هنا سنقرأ سورة البلد بوصفها سورة بناء الضمير المقاوم: الضمير
الذي لا تُخدّره الوفرة، ولا يخدعه النفوذ، ولا يجعله تكرار الإنفاق

المزهُوِّ به ينسى السؤال عن القبول والغاية، ولا يدعه الإيمان النظري يعبر فوق جوع الناس وأغلاهم. وسنقرأها بوصفها سورة العمر الذي لا ينجو من الكبد إلا إذا حوِّله إلى صعود؛ وسورة النعمة التي لا تكتمل بالشعور بها حتى تؤدي حقها؛ وسورة المجتمع الذي يبدأ إصلاحه حين يصبح الضعيف في مركز الوعي لا في هامشه؛ وسورة الرحمة التي لا تضعف الإنسان، بل تمنحه أشرف صور قوته.

فإذا فرغنا من هذه الرحلة، لعلنا لا نعود إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ كما كنا قبلها؛ لعلنا نسمع فيها عتاباً يمس أعمارنا، ونرى تحت ضوءها ما أجلناه من واجبات، وما سوفناه من توبة، وما مررنا به من آلام الآخرين دون أن نتوقف، وما ظنناه من أعمالنا صعوداً وهو دوران خفي حول الذات. ولعلنا ندرك أن الإنسان لا يبلغ مقامه الكريم بما يُضاف إلى يده، بل بما يُنتزع من أنانيته؛ ولا يكون من أصحاب الميمنة لأنه عاش بعيداً عن المشقة، بل لأنه جعل مشقته سلماً إلى الله، وجعل قدرته رحمةً لعباد الله.

الفصل الأول

البلد الحرام والإنسان المستباح

تأملات في قوله تعالى:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا
وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾

تُفتَحُ السُّورَةُ بِمَكَّةَ، لَكِنْ هُنَا لَيْسَتْ حُدُودًا جُغَرَفِيَّةً صَامِتَةً، وَلَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْبُيُوتِ وَالطَّرِيقَاتِ وَالْجِبَالِ؛ إِنَّهَا مَكَانٌ مَحْمَلٌ بِتَارِيخِ التَّوْحِيدِ، وَذَا كَرَّةِ الدَّعَاءِ، وَآثَرِ النُّبُوَّةِ، وَحَرَمَةِ الْبَيْتِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا. وَحِينَ يَقْسِمُ اللَّهُ بِهَذَا الْبَلَدِ تَتَجَسَّسُ النُّفُوسُ إِلَى مَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي: إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، وَإِسْمَاعِيلَ وَهُوَ يُشَارِكُهُ بِنَاءَ أَوَّلِ مَرْكَزٍ نَقِيٍّ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَإِلَى دَعْوَةٍ قَدِيمَةٍ أَنْ يُجْعَلَ اللَّهُ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِ، ثُمَّ إِلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ وَهُوَ يَقِفُ فِي الْبَلَدِ نَفْسَهُ حَامِلًا كَلِمَةً تُعِيدُ الْمَكَانَ إِلَى رِسَالَتِهِ الْأُولَى.

وقد ورد الأسلوب بقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾، وهو تعبير قرآني جليل قال المفسرون في توجيهه أقوالاً، منها أن «لا» صلة لتوكيد القسم، ومنها أن المعنى يتضمن رداً على قول سابق أو وهم باطل، ثم يأتي القسم بعد ذلك مثبتاً مؤكداً. وأياً كان التفصيل في التخريج، فإن الجرس يوقظ السامع، إذ لا يبدأ الكلام بدايةً هادئةً مألوفة، بل يجيء بما يهز الانتباه، كأن السورة تنتزع الإنسان من شروده، ثم تشير: بهذا البلد. واسم الإشارة يقرب المشهد حتى يكاد السامع يراه، ويستحضر خصوصيته وحرمة وامتداد آثاره في الزمان.

لكن الآية التالية تُدخل إلى قداسة المكان مشهداً مؤلماً: ﴿وَأَنَّتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. وقد حمل المفسرون معنى ﴿حِلٌّ﴾ على دلالات، من أشهرها الإشارة إلى ما أُحلَّ للنبي ﷺ ساعةً من نهار يوم فتح مكة، وقيل: إن المعنى أنك مقيم ونازل بهذا البلد، وقيل: إن أهل مكة استحلوا أذاك مع حرمة بلدهم. وهذه الدلالات لا تتزاحم في الوجدان بقدر ما تكشف مفارقة المكان والإنسان: بلد حرام، ورسول الله فيه يتعرض للأذى؛ حجارة لها حرمتها في عرف القوم، لكن أشرف إنسان يمشي بينها لا تحفظ له الرسالة ولا القرابة ولا مكارم سيرته حقه.

هنا تسقط إحدى أخطر الخدع الأخلاقية: أن يُعَظَّم الإنسان الرموز
ثم يهدم القيم التي ترمز إليها، وأن يقدِّس البناء ثم يؤدي حامل الرسالة
التي من أجلها بُدِّد البناء، وأن يطوف حول البيت بينما يدور قلبه
حول وثنه الخفي. فقد يستطيع التدين الشكلي أن يحرس حدود المكان،
لكنه يعجز عن حراسة معنى المكان في النفس؛ وربما بالغ المرء في تعظيم
الشعائر الظاهرة، ثم لم يمنعه ذلك من ظلم إنسان، أو كسر قلب، أو
خيانة أمانة، أو الوقوف في وجه الحق حين يهدد مصالحه. وليس الخلل
هنا في تعظيم الشعيرة، فتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، وإنما الخلل
أن يتحول التعظيم إلى ستار يحجب غياب التقوى بدل أن يكون أثراً من
آثارها.

وكم يتكرر هذا التناقض في حياة البشر: يحتفون بالمقدسات
ويستبشرون الإنسان، يرفعون أسماء القيم ويخفضون مقامها في السلوك،
يتحدثون عن العدل ثم يضيّقون بأول موقف يطالبهم بكلفته، ويمدحون
الصادق ما دام صدقه بعيداً عن مصالحهم، فإذا مسّها صار في نظرهم
مصدر إزعاج ينبغي إسكاته. إن القيم، حين تبقى أسماء، لا تهدد أحداً؛
لكن حين تتجسد في إنسان صادق تصبح امتحاناً. ولهذا لم تكن المشكلة

بين الرسول ﷺ وقومه نقصاً في معرفتهم بمكانته أو أمانته؛ فقد عرفوه قبل الرسالة بالصادق الأمين، وإنما كانت المشكلة أن الحق انتقل من فضيلة يُثنى عليها إلى دعوة تطالبهم بإعادة بناء حياتهم، وأن الأمانة لم تعد صفةً شخصيةً محببة، بل صارت وحياً يكشف خيانة المجتمع لأصل الفطرة.

وفي قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ حضور للنبي ﷺ يجعل القسم أكثر جلالاً؛ فالبلد عظيم، ويزداد المقام عظمةً بمن يحل فيه حاملاً الرسالة. إن شرف الأمكنة لا ينفصل عن معاني الهداية التي شهدتها، وما كانت مكة تملأ القلوب بذلك الجلال لولا أن الله اختارها لبيته، وجعلها موطناً لميلاد الرسالة الخاتمة، ومهوى أفئدة المؤمنين. وكأن الآية تقول إن المكان يعلو بالمعنى، وإن الأرض، على سعتها، لا تتفاضل بترابها وحده، بل بما أقامه الله فيها من دلائل العبودية، وبما مرَّ عليها من خطى الأنبياء، وبما ارتفع منها من دعاء المؤمنين.

ثم ينتقل القسم من المكان إلى سر الامتداد الإنساني: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾. والتذكير يفتح الدلالة على سعة مهيبة. قيل: المراد آدم وذريته،

وقيل: إبراهيم وولده، وقيل: يشمل كل والد وما ولد. وفي عموم اللفظ ما يجعل مشهد الولادة كله داخلاً في أفق القسم: هذا السر الذي يعبر به النوع الإنساني من جيل إلى جيل، وهذه الرحمة المودعة في الوالد، وهذا الضعف الذي يأتي به الوليد، وهذه السلسلة الممتدة من الأجساد والطباع والآمال والابتلاءات. كل مولود يبدأ عاجزاً، محمولاً على الذراع، لا يملك لنفسه طعاماً ولا حماية، ثم يكبر حتى يظن أن لن يقدر عليه أحد؛ وما بين ضعف البداية وغرور المنتصف تقف السورة لتعيده إلى حقيقته.

والوالد لا يمنح ولده الجسد وحده؛ إنه يمنحه الاسم، والذاكرة، واللغة، وجزءاً من نظرتة إلى العالم، وقد يورثه جرحاً لم يشف منه أو فضيلةً تضيء عمره. ولذلك فإن القسم بالوالد وما ولد يوقظ في الإنسان وعي الصلة: لم تبدأ بنفسك، ولم تصنع وجودك من العدم، ولم تختَر ملاحك الأولى ولا زمن ميلادك ولا البيت الذي فتحت عينيك فيه. أنت ثمرة سلسلة سبقتك، وستكون حلقةً فيما يأتي بعدك؛ فلا يليق بك أن تعيش كأن الوجود بدأ من رغبتك وينتهي عند مصلحتك.

وقد يكون في اقتران البلد بالوالد وما ولد إيماءً بديع إلى تاريخ مكة الإبراهيمي؛ فهذا البلد متصل بأبوة إبراهيم وبنوة إسماعيل عليهما السلام، وبتلك الأسرة التي لم تكن علاقتها مجرد عاطفة نسب، بل شركة في بناء بيت الله والاستسلام لأمره. فإبراهيم يرفع القواعد، وإسماعيل يعينه، وكلاهما يدعو: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾. إنهما يعملان عملاً سيبقى أثره في الأرض، ومع ذلك لا يغتران بالعمل، بل يخافان ألا يُتقبل؛ بينما سيأتي الإنسان المغرور في السورة نفسها ليقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾، مستعرضاً ما أنفق، غافلاً عن السؤال الأعظم: هل قُبل؟ لقد كان إبراهيم وإسماعيل بينان البيت وهما يستشعران الافتقار، ويهلك المغرور ماله وهو يستشعر الاستعلاء؛ وبين الموقفين تظهر المسافة بين عبودية تصنع الحضارة، وأنانية تصنع الضجيج.

وبعد القسم يأتي جوابه، جامعاً حقيقة التجربة الإنسانية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. ليست الآية قولاً إن بعض الناس قد يمرون بأوقات صعبة، بل تقرر أن الكبد داخل في بنية الحياة الإنسانية نفسها. فالإنسان يولد في مشقة، وينمو في مجاهدة، ويحمل في جسده حاجات لا تنتهي، وفي قلبه رغبات تتجاوز قدرته، وفي وعيه أسئلة لا تهدأ، ويقطع

العمر بين فقدٍ يخشاه، وأملٍ يطارد، ومسؤوليةٍ تثقل كتفه، وزمنٍ يأكل ما بين يديه. حتى لحظات راحته محاطة بإمكان زوالها، وكل ما يحبه في الدنيا معرض لأن يفارقه أو يفارقه هو.

غير أن القرآن لا يعلن هذه الحقيقة ليصبغ الوجود بالسواد، ولا ليغلق نوافذ الرجاء، وإنما ليحرر الإنسان من التصور الطفولي للحياة؛ ذلك التصور الذي يظن أن الأصل ألا يتألم، فإذا مسه الألم حسب أن العالم كله قد اختل، أو أن الله قد تخلى عنه، أو أنه وحده المستهدف بالبلاء. إن معرفة طبيعة الطريق تمنعنا من إساءة تفسير وعورته. فالمسافر الذي يعرف أنه يصعد جبلاً لا يعدُّ انقطاع أنفاسه دليلاً على ضياع الطريق، بل يفهمه بوصفه أثراً من آثار الصعود. أما من يتوهم أن الطريق سهل مستوٍ، فقد تدفعه أول صخرة إلى الرجوع.

لقد خلق الإنسان في كبد؛ وجاء حرف الظرفية كأن المشقة محيطته به، لا حادثة عارضة تمر من خارج حياته. لكن هذا الكبد ليس لوناً واحداً؛ فهناك كبد يفرضه الوجود: المرض، والضعف، والفقد، وتقلب الأحوال، ومقاومة الزمن. وهناك كبد يصنعه الإنسان لنفسه

حين يخاصم الحق، ويعبد شهوته، ويقيس قيمته بنظر الناس، ويستنزف روحه في المقارنات، ويطارد صورةً لا تشبهه، ويحمل من الضغائن ما يجعل قلبه ساحة حرب لا تهدأ. وهناك كبد شريف يختاره المؤمن: كبد القيام بالواجب، ومخالفة الهوى، وحماية الأمانة، والصبر على الطاعة، ونصرة المظلوم، وإطعام الجائع، واقتحام العقبة.

وليس السؤال الذي تطرحه السورة: كيف نهرب من الكبد كله؟ فهذا وعد لا تمنحه الدنيا لأحد. السؤال هو: أيَّ كبد نختار، وفي أي معنى نفق آلامنا؟ هل نتعب لنقيم العدل أم نتعب في اختراع الأعذار للظلم؟ هل نجاهد لنحرر أنفسنا من الشح أم نستنزف أعمارنا في حراسة ما جمعناه؟ هل نصبر في طريق يبني أرواحنا أم نصبر على قيود صنعها خوفنا من التغيير؟ إن كل إنسان يدفع من عمره ثمنًا، لكن الحكماء وحدهم يسألون: ما الشيء الذي يستحق أن يدفع فيه العمر؟

ومن رحمة الآية أنها تمنح الألم معنى دون أن تجده لذاته. فالإسلام لا يطلب المشقة من أجل المشقة، ولا يجعل تعذيب النفس طريقًا إلى الله، وإنما يخبر الإنسان أن وجود الصعوبة لا يعني بطلان الطريق. قد

يكون الطريق صحيحاً لأن فيه مشقةً لا لأنه يخلو منها؛ وقد تكون مقاومة النفس علامة حياة لا علامة حرمان؛ وقد يكون الألم الذي يصيب المؤمن محرّثاً يفتح في روحه موضعاً لم يكن ينفذ إليه النور من قبل. ومع ذلك يبقى المؤمن مأموراً بطلب العافية، ورفع الضرر، وتخفيف آلام الناس؛ لأن الكبد حقيقة امتحان، لا ذريعة لإدامة الظلم أو تقديس المعاناة التي يمكن دفعها.

والإنسان في الكبد يحتاج إلى رؤية تحميه من العبث. فإذا انفصل ألمه عن الإيمان بدا له الوجود غرفةً مغلقة، كل وجع فيها نقص، وكل فقد فيها سرقة، وكل نهاية فيها هزيمة. أما إذا اتصل بالله، علم أن شيئاً من صبره لا يضيع، وأن ما يفوته هنا ليس آخر الحساب، وأن العالم الذي يرى فيه الظالم ينجو والمظلوم ينكسر ليس العالم الأخير، وأن وراء هذا النقص تماماً، ووراء هذا الفراق لقاءً، ووراء هذه الطريق ميزاناً لا يسقط منه مثقال ذرة.

وما أعمق الصلة بين قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وبين ما سيأتي من ذكر العقبة؛ فالسورة لا تكتفي بتشخيص وعورة الوجود، بل

تعلّم الإنسان كيف يحوّل هذه الوعورة إلى اتجاه. أنت في كبد على كل حال، فلا تجعل مشقتك دوراناً في الوادي، بل اجعلها اقتحاماً للعقبة. لا تبدد طاقتك في إثبات أنك أقوى من الناس، بل استخدم قوتك في تحريرهم من الضعف. لا تجعل أوجاعك مدرسةً للقسوة، فتقول: لقد تألمت، فليألم غيري، بل اجعلها نافذةً للرحمة: لقد عرفت الوجد، ولذلك لن أزيد وجعاً إلى العالم.

فالإنسان قد يخرج من الألم بنسختين متناقضتين: قد يخرج منه أكثر قسوةً، لأنه لم ير في جراحه إلا نفسه؛ وقد يخرج أكثر رحمةً، لأنه رأى في جرحه مفتاحاً لفهم جراح الآخرين. الألم وحده لا يزيك، إنما تزكيه الطريقة التي نستقبله بها، والمعنى الذي نستخرجه منه، والوجهة التي نقود طاقته إليها. ولهذا ستجعل السورة التواصل بالرحمة ذروةً في طريق النجاة؛ فالرحمة ليست صفةً يولد بها الضعيف، بل فضيلة قد يصنعها الكبد حين يمر في قلب مؤمن.

وبذلك تضع الآيات الأربع الأولى أساس الكتاب كله: مكان مقدس لا تتمتع قدسيته البشر من امتحان الحق، ورسول كريم يتعرض

للأذى وهو يحمل أعظم رحمة للعالمين، ووالد وما ولد في سلسلة الوجود والابتلاء، وإنسان مخلوق في كبد لا يجد معنى كَبَدَه إلا حين يعرف ربه ويختار طريقه. ومن هذا الأساس ستصعد السورة إلى كشف الغرور؛ لأن أخطر ما يقع فيه الإنسان المتعب أن يظن أن ما بذله من جهد قد جعله مالكا مطلقا لقوته، وأن صعوده الديني قد أخرجه من سلطان الله.

وهكذا لا تبدأ سورة البلد بوعد الراحة، بل بهدم الوهم الذي يجعل الراحة غاية الوجود؛ لأنها تريد أن تبني إنسانا لا تكسره وعورة الطريق، ولا تغريه سهولة المنحدر، ولا يحسب أنه ضحية لمجرد أنه ابتلي، ولا يعدُّ النجاة في أن يسلم وحده. إنها تهيئه منذ البدء للاقتحام: أن يعيش الكبد، لكن بقلب يعرف لماذا يعيش؛ وأن يحمل الألم، لكن دون أن يحوله إلى أذى؛ وأن يعبر البلد والزمان والعمر، تاركاً خلفه رقبةً تحررت، وجائعا شبع، ویتيما وجد قريبا، ومسكينا شعر أن العالم لم ينسه، وقلبا تعلم منه الصبر، وإنسانا مسته رحمته فعرف أن الإيمان ليس كلمة معلقة فوق الحياة، بل يدا تمتد في أشد أيامها مسغبة.

الفصل الثاني

وَهُمُ الْقُوَّةُ وَانْكِشَافُ الْإِنْسَانِ تَحْتَ عَيْنِ اللَّهِ

تأملات في قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا
يَقُولُ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾

بعد أن قررت السورة حقيقة الإنسان الوجودية في قوله تعالى:
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، انتقلت من وصف حاله إلى كشف
الوهم الذي قد يتكون داخله بسبب ما يعانیه ويذله ويملكه؛ فكان
الإنسان، حين يصارع الحياة زمناً طويلاً، وحين يتغلب على بعض
صعوباتها، وحين يشعر أن يده قد اشتدت وأن ماله قد كثر وأن نفوذه
قد اتسع، ينسى ضعفه الأول، ويخرج من معركة الكبد لا بالشكر
والتواضع، بل بغرور خفي يوهمه أنه صار خارج القدرة، وأنه لم يعد
محتاجاً إلى أحد، وأن القوة التي أودعها الله فيه أصبحت ملكاً ذاتياً لا
سلطان لله عليها ولا حق للخلق فيها.

ولهذا لم تقل الآية: إنه قوي، بل واجهت حسابه؛ لأن الخلل يبدأ من التصور الذي يحمّله الإنسان عن نفسه: ﴿أَيَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾. والحسبان ظنُّ لا يقوم بالضرورة على حقيقة، لكنه إذا استقر في القلب أعاد تشكيل السلوك كله. فمن ظن نفسه خارج المحاسبة لم يتورع عن الظلم، ومن ظن أن لا قدرة فوق قدرته استعمل النعمة استعلاءً، ومن ظن أن أبواب الأرض قد أغلقت في وجهه من ظلمه نسي أن للمظلوم باباً إلى السماء لا يغلقه نفوذ، ولا يحجبه حارس، ولا يحتاج إلى إذن من سلطان.

إن الإنسان لا يقول دائماً بلسانه: لن يقدر عليّ أحد؛ لكنه قد يقولها بطريقة حياته. يقولها حين يبطش وهو مطمئن إلى منصبه، وحين يأكل حق الضعيف لأنه يعلم أن الضعيف لا يملك محامياً ولا عشيرةً ولا صوتاً مسموعاً، وحين يختبئ خلف المؤسسة أو القبيلة أو السلطة أو الشهرة، وحين يظن أن كثرة الأتباع تستطيع أن تحوّل الباطل حقاً، أو أن كثرة المصنفين تحو من كتاب الله ما كتبه يداه. وقد تكون أخطر كلمات الإنسان تلك التي لا ينطق بها، وإنما تتحول في داخله إلى يقين

عملي: يتصرف كما لو أنه لا يُقهر، ويقرر كما لو أنه لا يُسأل، ويأخذ كما لو أنه لا يُحاسب.

والاستفهام في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ليس طلباً للجواب، بل تقرير يزول هذا الوهم من أساسه. أيحسب حقاً أن القوة التي مُنحت له قد رفعت عنه سلطان واهبها؟ أيظن أن الجسد الذي يبطش به لا يستطيع المرض أن يطفئ فيه جذوة العافية؟ أيظن أن المال الذي يفتح له الأبواب لا يمكن أن يتحول في لحظة إلى أرقام عاجزة عن شراء دقيقة واحدة من العمر؟ أيحسب أن الذين يحيطون به اليوم سيبتلون حين تتغير المصالح، أو أن اسمه الذي يملأ المجالس لن يأتي عليه زمن لا يبقى فيه إلا أثره في كتاب الأعمال؟

إن الذي يتوهم أن لن يقدر عليه أحد ينسى أنه كان طفلاً لا يستطيع دفع بعوضة عن وجهه، وأنه ينام كل ليلة فتغيب عنه مملكته، ويستسلم لضعف لا يملك مقاومته، وأن قلبه الذي يملأ الدنيا ضجيجاً معلق بنبضة لا يصنعها بإرادته، وأن روحه ليست في يده حتى يأمرها بالبقاء. الإنسان أضعف من أن يخلق نفسه، وأضعف من أن يمنع

شيخوخته، وأضعف من أن يضمن الدقيقة القادمة؛ ومع ذلك يستطيع
الغرور أن يقيم فوق هذا الضعف كله تمثلاً كاذباً للقوة، ثم يأمر
صاحبه أن يسجد له.

غير أن السورة لا تريد إذلال الإنسان بإشعاره بضعفه، بل تريد
تحريره من عبودية القوة الموهومة. فالذي يعرف أن قدرة الله تحيط به
لا يعود مضطراً إلى حماية صورته بالتجبر، ولا يحتاج إلى سحق الآخرين
حتى يشعر بوجوده، ولا يجزع إذا نقصت أسباب الأرض من بين
يديه؛ لأنه لم يكن يعبدها حين كانت حاضرة. إن الإيمان بقدرة الله لا
يصنع إنساناً مسحوق الإرادة، وإنما يصنع إنساناً يعرف حجم نفسه،
فيتواضع دون مهانة، ويقوى دون طغيان، ويعمل دون غرور، ويشق
بالله دون أن يتوهم الاستغناء عنه.

ومن أعمق ما تكشفه الآية أن الاستبداد، قبل أن يكون نظاماً
سياسياً، حالةٌ قلبية تبدأ حين ينسى الإنسان القدرة التي فوقه. قد يكون
الرجل مستبداً في بيته، أو في وظيفته، أو في مجلس صغير لا يتجاوز
بضعة أشخاص؛ لأن الاستبداد لا يقاس باتساع المجال الذي يتحرك فيه،

وإنما بطبيعة الروح التي تمارسه. كل من امتلك قدرةً محدودة ثم استعملها كما لو أنها مطلقة، فقد دخل في شيء من هذا الحسبان؛ وكل من رأى ضعف غيره فرصةً لاستغلاله بدل أن يراه أمانةً في عنقه، فقد نسي أن الله الذي أقدره اليوم قادر على أن يبدل المواقع غداً.

وإذا كان الطغيان يبدأ من وهم القدرة، فإن السورة تكشف المظهر الذي يتجسد فيه هذا الوهم: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾. لم يقل: أنفقت مالاً؛ وإنما قال: أهلكت. والكلمة تصور المال كأنه أفني وأذهب في وجوه كثيرة، سواء أكان قوله تباهاً بما بذل في العداوة والرياء والمفاخرة، أم احتجاجاً بما تكلفه من نفقات يظن أنها تمنحه مكانة واستحقاقاً. وهو لا يتحدث عن قليل متناثر، بل عن مال لبداً أي كثيراً متراكباً بعضه فوق بعض.

لكن لماذا يتباهى الإنسان بإهلاك المال؟ لأن الإنفاق عنده لم يعد عبادةً تتجه إلى الله، ولا رحمةً تصل إلى المحتاج، وإنما أصبح استعراضاً للقدرة. إن بعض الناس لا يشعر بقيمة المال إلا حين يثبت أنه يستطيع تبديده، ولا يشعر بمكانته إلا حين يرى الآخرين مندهشين مما ينفق؛ فهو

لا يريد أن يصل النفع إلى الخلق بقدر ما يريد أن تصل صورته إلى أعينهم. وقد يعطي كثيراً، لكن عطاءه لا يحرر فقيراً بقدر ما يقيد المعطى بشعور المنّة، ولا يفتح باباً للرحمة بقدر ما يبني منصةً جديدة لكبريائه.

والقرآن لا يذم المال لكونه مالا، فقد سماه في موضع آخر خيراً، وجعل الإنفاق منه طريقاً إلى البر، وإنما يذم العلاقة الفاسدة التي تجعل المال أداةً لصناعة الوهم. فالمال قد يكون في يد المؤمن باباً لفك الرقاب وإطعام الجائعين، وقد يكون في يد المغرور وقوداً للباهة وشراء الولاءات وإسكات الحق وتوسيع دوائر الطغيان. المادة واحدة، لكن القلب الذي يحركها مختلف؛ والدراهم لا تحمل أخلاقاً في ذاتها، وإنما تكشف أخلاق اليد التي تنصرف بها.

والمفارقة أن صاحب المال يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، ثم ستسأله السورة بعد قليل عن العقبة التي لم يقتحمها. لقد أنفق، لكنه لم يصعد؛ وأهلك المال، لكنه لم يحيي به إنساناً؛ وحرك يده، لكن قلبه بقي في أسفل الوادي. ليست كل نفقة اقتحاماً، ولا كل كثرة بركة، ولا

كل فعل ظاهر دليلاً على حياة الباطن. قد يبذل المرء من ماله الكثير ليشترى ثناءً قصيراً، ثم يعجز عن بذل القليل في موضع لا يراه فيه إلا الله؛ لأن الذي يصعب على النفس ليس خروج المال من اليد فقط، وإنما خروج عبادة الصورة من القلب.

وفي كلمة ﴿يَقُولُ﴾ دلالة على أن القضية ليست إنفاقاً فحسب، بل حديثٌ بالإنفاق وتذكيرٌ به واستحضارٌ له أمام الناس. فالمال الذي خرج من يده لم يخرج من لسانه؛ يظل يعدد ما صنع، ويستدعي أسماء من أعانهم، ويحصي للمجالس ما قدّم، كأنه لم يعطهم حقاً أو رحمة، بل اشترى بهم روايةً يكرر فيها بطولة نفسه. وربما كان الفقير قد نسي جوعه، لكن الغني لا يدعه ينسى اللقمة التي أعطاهها له، وربما خرج المحتاج من أسر الحاجة ليقع في أسر المنّة.

وهنا يحفظ القرآن كرامة العطاء من أن تفسدها الكلمات؛ فالصدقة ليست مجرد انتقال للمال من يد إلى يد، بل انتقال للقلب من الشح إلى الرحمة. فإذا خرج المال وبقي الشح في صورة حرص على الثناء، لم يتحقق التحرر كاملاً. وقد يكون المنُّ استرداداً معنوياً لما أُعطي مادياً؛ يعطي

الإنسان مألًا، ثم يأخذ مقابله كرامة الفقير، وحرّيته، وصوته، وحقه في ألا يشعر بأنه أقل من غيره. ولهذا كانت الكلمة الطيبة والمغفرة خيرًا من صدقة يتبعها أذى؛ لأن غاية العطاء ليست أن يتضخم المعطي، بل أن يخفّ ألم المحتاج.

ثم تسقط السورة آخر ستائر الغرور بسؤال آخر: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾. في الآية الأولى كان وهمه متعلقًا بالقدرة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وهنا صار متعلقًا بالرؤية: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾. وبين القدرة والرؤية يكتمل الحصار الأخلاقي: الله يراه، والله قادر عليه. فلا يخفى فعله حتى يفلت من العلم، ولا يعجز الله عنه حتى يفلت من الجزاء.

إن المراقبة الإلهية في التصور القرآني ليست عينًا ترصد الإنسان لتصيّد هفواته، تعالى الله عن ذلك، وإنما هي إحاطة علمية كاملة تردّ العالم إلى ميزان العدل. فكم من مظلوم لم يره أحد وهو يُقهر، لكن الله رآه؛ وكم من مخلص قدّم خيرًا ثم غادر دون أن يعرف الناس اسمه، لكن الله رآه؛ وكم من كلمة قيلت في غرفة مغلقة فهذمت قلبًا، وكم من

دمعة سقطت في ظلمة الليل ولم يسمع بها أقرب الناس، وكل ذلك حاضر في علم الله لا تضيع منه التفاتة ولا خفقة ولا أنفة.

وإذا كان علم الله مخيفاً للظالم، فهو عزاء للمظلوم، وأنس للمخلص، وحماية للإنسان من عبودية الجمهور. فالذي يعلم أن الله يراه يستطيع أن يعمل حين لا يصفق له أحد، ويستطيع أن يثبت حين يهمله الناس، ويستطيع أن ينسحب من مشهد الرياء وإن خسر صورته؛ لأن العين التي يرجوها لم تغب عنه. إن شعور المؤمن بأن الله يراه لا يطارده، بل يجمع شتاته؛ فهو لا يحتاج أن يوزع قلبه بين أعين البشر، ولا أن يعدل وجهه مع كل جمهور، ولا أن يصوغ حياته على مقاس توقعاتهم.

أما من نسي رؤية الله، فإنه يصبح أسيراً لنظر الناس، ولو بدا مستقلاً عنهم. يعمل إذا رأوه، ويتراجع إذا غابوا، ويصنع من نفسه نسخة لكل مجلس، ويخشى سقوط صورته أكثر مما يخشى سقوط حقيقته. وقد يستقيم مظهره لأن الكاميرات حاضرة، لكنه يفسد حين يخلو؛ لأن الوازع عنده لم يتجاوز حدود الرؤية البشرية. وهنا ينشأ الانقسام الداخلي: صورة مضيئة في العلن، وغرفة معتمة في السر،

ولسان يتحدث عن القيم، ويد تفعل ما يناقضها حين تطمئن إلى غياب الشهود.

والآية لا تقول فقط إن الله رأى إنفاقه، بل تفتح السؤال عن كل ما أحاط بذلك الإنفاق: من أين اكتسب المال؟ وفيم أنفق؟ وما النية التي دفعته؟ وما الأذى الذي ألحقه بالعاء؟ ومن حُرِم من حقه حتى نتضخم الكومة التي يتباهى بإهلاكها؟ فالناس يرون الحركة الظاهرة، أما الله فيرى السلسلة كلها: يرى المال قبل أن يدخل اليد، والنية قبل أن تحركها، والوجهة التي خرج إليها، والأثر الذي تركه في قلب الفقير، والكلمة التي أعقبت العطاء، والنشوة الخفية التي شعر بها المعطي حين امتدحه الناس.

وما أكثر ما يخدع الإنسان نفسه لأنه يختصر المشهد في اللقطة التي تخدم صورته. يتذكر أنه أعطى، وينسى أنه أذل؛ يتذكر أنه بنى، وينسى ما هدمه في سبيل البناء؛ يتذكر ما دفعه من مال، ولا يتذكر ما أخذه من حقوق؛ يتذكر تعبهُ، ولا يتذكر تعب الذين حملوا عنه الأثقال؛ يتذكر أنه وصل إلى القمة، وينسى الأثكاف التي جعل منها درجات. أما رؤية

الله فلا تختصر المشهد ولا تجتزئه، ولا تتخذع بالرواية التي يكرها الإنسان
عن نفسه.

وفي تكرار ﴿الْيَحْسَبُ﴾ دلالة على أن السورة تواجه منظومةً كاملةً
من الأوهام. الإنسان يحسب أنه خارج القدرة، ويحسب أنه خارج
الرؤية؛ فإذا اجتمع الوهمان تحررت شهوته من كل قيد: لا أحد يراني،
وإن رأي فلا أحد يقدر عليّ. لكن الإيمان يهدم هذين الجدارين معاً:
ربي يراني، وربي قادر عليّ. وهما حقيقتان لا تسحقان المؤمن، بل تقوم
عليهما استقامته وطمأنينته؛ يخاف حين تدعوه نفسه إلى الظلم، ويطمئن
حين تنقطع عنه أسباب النصر، ويستحي في السر، ويثبت في العلن.

وهكذا تردُّ السورة الإنسان من ادعاء القوة إلى حقيقة العبودية،
ومن التباهي بما أهلك إلى السؤال عما أبقى، ومن عيون الجمهور المكدوعة
إلى عين الله التي لا تخفى عليها السرائر. إنها تريد أن تطهر القوة لا أن
تلغيها، وأن تهذب المال لا أن تنتزعه، وأن تجعل الرؤية الإلهية مصدراً
لصدق الإنسان لا سبباً للشك. فالقوة إذا تذكرت قدرة الله أصبحت

عدلاً، والمال إذا تذكر صاحبه رؤية الله أصبح رحمة، والعمل إذا تحرر من أعين الناس أصبح عبادة.

وليس أخطر على الإنسان من أن تتسع قدرته أسرع من اتساع ضميره؛ لأن الأدوات حين تكبر في يد نفس صغيرة تتحول إلى وسائل كبرى للأذى. ولذلك تسبق السورة ذكر العقبة بهدم غرور القدرة والمال؛ فالذي لا يعترف بأن الله قادر عليه لن يرى في الضعيف أخاً يجب إنقاذه، بل فرصةً لإثبات سيطرته، والذي يظن أن المال شاهد كفايته لن يفهم أن المال امتحان أمانته، والذي يعيش أسير أعين الناس لن يقتحم عقبةً لا يعرف الناس ما تكلفه.

إن الاقتحام الحقيقي يبدأ من هنا: أن يقتحم الإنسان وهمه عن نفسه، وأن يهدم في داخله العرش الصغير الذي جلس عليه غروره، وأن يعترف بأن كل قدرة فيه عارية مستردة، وأن كل مال في يده أمانة مؤقتة، وأن كل فعل منه مرئي، وأنه سيقف مجرداً من الروايات التي صنعها عن نفسه. عندئذ فقط تتحول القوة من حق مزعوم إلى تكليف، ويتحول المال من سورٍ يعزل صاحبه عن البشر إلى جسر يعبر

عليه نَحْوَهُم، وَيَصْبِحُ الْإِنْسَانُ مُسْتَعِدًّا لِأَن يَرَى الْعَيْنَيْنِ وَاللِّسَانَ
وَالشَّفَتَيْنِ لَا أَعْضَاءَ يَمْلِكُهَا، بَلْ حُجْبًا أَقَامَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَنَعْمًا يَسْأَلُهُ عَنْ
طَرِيقِ اسْتِعْمَالِهَا.

الفصل الثالث

هِنْدَسَةُ النِّعْمَةِ وَمَسْئُولِيَّةُ الْهُدَايَةِ

تأملات في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

بعد أن سألت السورة الإنسان: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، انتقلت به إلى العينين اللتين يرى بهما، وكأنها تردُّ غفلته عن نظر الله بتذكيره بأداة النظر التي وهبها الله له: أنت تظن أن أحداً لم يرك، فمن الذي منحك أنت القدرة على أن ترى؟ وأنت تتباهى بما أهلكك من المال، فمن الذي صنع لك الجوارح التي كسبت بها المال، واللسان الذي تحدث به عنه، والشفتين اللتين خرج ادعاؤك من بينهما؟

إن السورة لا تناقش غرور الإنسان بالفكرة وحدها، بل تعيده إلى جسده؛ إلى هذه النعم التي التصقت به حتى نسي أنها نعم، وصار يستعملها كل لحظة دون أن يتوقف أمام دهشتها. فالإنسان غالباً ما يرى

النعمة في الشيء الذي يأتيه من الخارج: مال يزداد، أو بيت يتسع، أو منصب يُمنح، لكنه يقل أن يرى النعمة في العين التي تقرأ، واللسان الذي يعبر، والشفقتين اللتين تضبطان خروج الصوت، والجهاز البديع الذي يحول المعنى المستتر في النفس إلى كلمات يسمعها الآخرون.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾؛ سؤال يوقظ المعرفة الفطرية التي لا يستطيع الإنسان إنكارها. لم يصنع عينيه، ولم يرسم شبكيتهما، ولم يشعل فيهما سر الإبصار. فتح عينيه على العالم فوجد القدرة على النظر حاضرة قبل وعيه بها. كان رضيعاً لا يعرف معنى الضوء، ومع ذلك كانت عيناه تتعلمان استقبال الوجوه والألوان؛ ثم كبر حتى صارت الرؤية عنده فعلاً مألوفاً، والمألوف هو أكثر النعم عرضة للنسيان.

ولم يقل: ألم نجعل له عيناً، بل ﴿عَيْنَيْنِ﴾؛ فيتجه التأمل إلى هذا التوازن الذي يهب الرؤية عمقها واتساعها، ويجعل العالم لا يصل إلى الإنسان سطحاً مبهمًا، بل مشهداً تتحدد فيه المسافات والأشكال والحركات. غير أن المقصود الأعظم ليس تفصيل الخلق الجسدي وحده، بل إقامة الحجة بالنعمة: الذي أعطاك أداتي الإبصار لم يرد منك

أن تنظر إلى الطريقين ثم تزعم أنك لم تعرف، أو أن ترى آلام الناس ثم تمضي كأن شيئاً لم يكن.

فالعين ليست نافذةً تدخل منها الصور فحسب، بل بابٌ من أبواب المسؤولية. قد يرى الإنسان بالعينين ولا يبصر بقلبه؛ يمر بالفقراء كل يوم حتى يصبح الفقر جزءاً من ديكور المدينة، وتعتاد عيناه مشهد اليتيم فلا يتحرك في قلبه سؤال، ويرى الظلم يتكرر حتى تفقد الصورة قدرتها على إيقاظه. والمشكلة هنا ليست في نقص الضوء، بل في كثافة الحجاب الداخلي؛ فكم من إنسان سليم البصر لا يرى إلا نفسه، وكم من فاقد للبصر أبصر من حقائق الوجود ما عميت عنه قلوب المبصرين.

إن البصر قد يتحول إلى خادم للشهوة، أو رسول للحسد، أو أداة للتجسس، أو مرآة لا تبحث في العالم إلا عما يزيد الإعجاب بالنفس. وقد يصبح طريقاً إلى الإيمان والمعرفة والرحمة: ينظر الإنسان إلى آيات الله في الخلق، وإلى مصائر الأمم في التاريخ، وإلى وجوه المتعبين، وإلى حاجات القريبين منه، فيرى ما وراء الصورة. وليست فضيلة العين في

أنها تنقل الموجودات إلى الذهن، بل في أنها لا تمنع القلب من تلقي رسالتها.

وكل ما تراه العين يترك في الداخل أثراً، وإن ظن الإنسان أن النظرة تمضي بلا حساب. بعض الصور يمر بالعين ثم يقيم طويلاً في الخيال، وبعضها يضعف الحياء شيئاً فشيئاً، وبعضها يغذي المقارنة حتى يكره الإنسان نصيبه، وبعضها يفتح في القلب نافذة امتنان لا تغلق. ولهذا فإن حفظ البصر ليس حرماناً للإنسان من العالم، بل حماية لعالمه الداخلي من أن تملأه الصور التي لا يستطيع إخراجها بعد دخولها.

ثم تقول السورة: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾. ينتقل السياق من نعمة التلقي إلى نعمة التعبير؛ فبالعينين يستقبل الإنسان العالم، وباللسان والشفتين يخرج ما في داخله إلى العالم. وبين الدخول والخروج تتكون شخصيته الأخلاقية: ماذا يسمح لعينه أن تتحلى إلى قلبه؟ وماذا يسمح للسانه أن يحمل من قلبه إلى الناس؟

واللسان عضو صغير، لكنه من أكثر أعضاء الإنسان كشفاً لحقيقته، ومن أوسعها أثراً في مصيره. بكلمة يدخل المرء في الإسلام،

وبكلمة قد يخرج من الصدق إلى الخيانة، وبكلمة تُصلح بين قلبين،
وبأخرى تشعل عداوةً تمتد أجيالاً. يستطيع اللسان أن يرفع مظلوماً،
وأن يحمي غائباً، وأن يعلم جاهلاً، وأن يواسي مكروباً، كما يستطيع أن
يقلب البراءة تهمةً، وأن يجعل الإشاعة حقيقةً في وعي الناس، وأن
يقتل معنىً كريماً دون أن تسيل قطرة دم.

وذكر الشفتين بعد اللسان يفتح باباً دقيقاً من التأمل؛ فاللسان لا
يعمل وحده، بل تحيط به شفتان تضبطان مخارجه وتشاركان في صياغة
صوته. وكأن في بنية الفم درساً أخلاقياً: لقد جعل الله للسان حدوداً،
وأقام عليه بايّن، فلا ينبغي أن تخرج كل كلمة خطرت، ولا أن يتحول
كل انفعال إلى خطاب. الإنسان لا يملك دائماً أول خاطر يمر بقلبه،
لكنه يملك ألا يمنحه لساناً، ولا يحوله من وسوسة عابرة إلى أذى مقيم
في روح إنسان آخر.

كم من كلمة بقيت في صدر صاحبها دقائق ثم ماتت، ولو خرجت
لعاشت أعواماً في قلب من سمعها! وكم من غضب كان يمكن أن ينطفئ
لو أن الشفتين أغلقتا لحظة، لكنه حين خرج من اللسان صار خصومةً

وسلسلةً من الردود والجراح! ليست الحكمة أن يقول الإنسان كل ما يعرف، ولا الصراحة أن يقذف إلى الناس كل ما يشعر به، ولا الشجاعة أن يطلق لسانه ثم يترك الآخرين يحملون أنقاض كلماته. أحياناً يكون إغلاق الشفتين عبادةً كاملة، ويكون الصمت هو الصيغة الوحيدة التي تستطيع بها الرحمة أن تتكلم.

لكن اللسان لم يُخلق للصمت المطلق؛ فقد يكون الصمت نفسه خيانة حين يجب البيان، وجبناً حين يستغيث الحق، وتواطؤاً حين يُنهش الضعيف أمام صاحبه. إن قيمة اللسان لا تتحقق بمجرد كفه عن الشر، بل باستعماله في الخير: أن يقول الحق دون استعلاء، وأن يواسي دون تصنع، وأن ينصح دون فضيحة، وأن يختلف دون أن يهدم كرامة المخالف، وأن يحمل الكلمة كما يحمل الأمين وديعةً يخشى عليها من العبث.

والإنسان الذي قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ استعمل لسانه في تزكية نفسه؛ ولذلك يذكره الله بأن هذا اللسان مصنوع موهوب، لا ملك مطلق له. فما أغرب أن يتباهى العبد بلسان خلقه الله، بمال رزقه الله، أمام عباد خلقهم الله، ثم ينسى الله الذي قام به كل شيء! إن

الغرور يستعير أدواته من نعم الله ثم يستعملها في حجه عن الله، ويأخذ من العطاء الإلهي مادةً لصناعة الاستغناء الوهمي عن المعطي.

ثم تتجاوز السورة نعمة الحواس والبيان إلى النعمة التي تمنحها معناها الأخلاقي: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. والنجد هو الطريق المرتفع الواضح، والمراد بالنجدين - على ما عليه جمهور المفسرين - طريق الخير وطريق الشر، وقد عرّف الله الإنسان بهما، وميّز له سبيل الهدى من سبيل الضلال، وأودع فيه من الفطرة والعقل، وأرسل إليه من الرسل، وأنزل له من الوحي ما تقوم به الحجة وتستبين الطريق.

إن الهداية هنا لا تعني أن الإنسان أكره على أحد الطريقين، وإلا لما كان للابتلاء معنى، وإنما تعني أنه لم يُترك بلا بيان. أرى الطريقان، ومُنح قدرة الاختيار، ثم جعلت حياته ميداناً تظهر فيه وجهته. فالإنسان ليس حجراً تدفعه القوى العمياء، ولا آلة تتحرك بلا مسؤولية؛ إنه مخلوق مكرم بقدرته على التمييز، ومبتلى بحريته، ومسؤول لأن معالم الطريق قد بانّت له.

واللافت أن السورة سمّت الطريقين النجدين، وفي اللفظ معنى الارتفاع والوضوح؛ فلا الخير دائماً طريقاً مريحاً منخفضاً، ولا الشر طريقاً يعلن عن نفسه في صورة قبيحة منذ البداية. قد يكون طريق الخير صاعداً يتطلب جهداً، وقد يكون طريق الشر مريحاً تسهل خطواته الأولى ثم ينتهي بصاحبه إلى هاوية. ولهذا ستأتي العقبة بعد ذكر النجدين مباشرة؛ لأن معرفة الخير لا تعني اقتحامه، ورؤية الطريق ليست هي السير فيه.

لقد منح الله الإنسان عينين ليرى، ولساناً وشفتين ليسأل ويبين، وهده النجدين؛ فلم تعد حجته أنه لم يُعط الأدوات، وإنما صار السؤال: ماذا فعل بها؟ رأى الفقير، فهل اقترب؟ وعرف الحق، فهل نطق؟ وتبين الطريق، فهل اقتحم؟ إن النعمة في المنظور القرآني ليست امتيازاً يرفع الإنسان على غيره، بل مسؤولية تزيد مساحة السؤال. وكلما اتسعت قدرته اتسعت أمانته؛ فالعالم مسؤول بعلمه، والغني مسؤول بماله، والقادر مسؤول بقدرته، وصاحب الكلمة مسؤول بمن يصل إليهم صوته.

ولا يكفي أن يعرف الإنسان النجدين معرفةً ذهنية؛ فالنفوس قد تعرف الخير ثم تتأقل عنه، وتعرف الشر ثم تتقاد إليه. المعرفة تضيء الطريق، لكنها لا تحمل الأقدام. وما بين وضوح الطريق وحركة القدم تقع المعركة كلها: معركة الهوى، والخوف، والشح، والعادة، وضغط الجماعة، وحب المكانة، والرغبة في السلامة. قد يكون الحق واضحاً، لكن ثمنه باهظاً؛ وقد يكون الباطل مكشوفاً، لكن منافعه العاجلة مغرية. وهنا يتحدد معنى الإنسان: ليس بما عرفه فقط، وإنما بما اختاره حين تعارضت معرفته مع مصلحته.

وكم من إنسان قضى عمره يصف الطريقين بدقة، لكنه لم يضع قدمه على طريق النجاة! يحسن الحديث عن الصبر، لكنه ينهار عند أول امتحان؛ ويكتب عن الرحمة، لكنه يضيق بأقرب الناس إليه؛ ويستنكر الظلم البعيد، لكنه يمارسه في الدائرة التي يملك فيها السلطة؛ ويمدح البذل، لكنه لا يمد يده حين يصبح العطاء نقصاً حقيقياً مما يجب. إن الفضائل التي لا تدخل منطقة الكلفة تبقى أفكاراً جميلة، لكنها لم تتحول بعدُ إلى أخلاق.

ولهذا لا تقف السورة عند قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ لأن الإنسان قد يحتفل بامتلاكه المعرفة كما احتفل بامتلاكه المال، وقد يتوهم أن معرفة الحق تعفيه من مشقة اتباعه. لكنها تفاجئه مباشرةً بقوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾. كأن كل النعم السابقة كانت تجهيزاً لهذه اللحظة: عينان تريان موضع العقبة، ولسان يسأل ويذكر، وشفتان تنطقان بالحق، وهداية تميز الطريق؛ ثم بقي أن يتحرك الإنسان.

والهداية إلى النجدين تجعل الحياة أكثر جدية؛ فكل لحظة تحمل إمكان الاتجاه، وكل عادة صغيرة تضع قدماً على طريق. ليس الاختيار الأخلاقي محصوراً في المواقف الكبرى التي تسجلها الكتب، بل يتشكل في النظرة التي يظنها الإنسان عابرة، والكلمة التي لا يلقي لها بالاً، والمال القليل الذي يمنعه أو يبذله، والموقف الذي يستطيع فيه أن يرحم فيقسو، أو ينتقم فيعفو، أو يصمت عن غيبة فيشارك فيها، أو يدافع عن غائب لا ينتظر منه جزاءً.

والطريقان لا يبدآن خارج الإنسان، بل من داخله. في كل قلب نجدان: مرتفع يدعوه إلى تجاوز ذاته، ومنحدر يغريه بأن يجعل ذاته مركز

الوجود. وفي كل موقف طريق إلى الله وطريق إلى الهوى، حتى وإن تشابهت الصورة الظاهرة. قد يعطي رجلان المال نفسه للمحتاج نفسه، فيصعد أحدهما لأنه أراد وجه الله، وينحدر الآخر لأنه أراد امتلاك قلب المحتاج وثناء الناس. وقد يصمت رجلان في موقف واحد، فيكون صمت أحدهما حلماً، وصمت الآخر جنباً. إن الطريق لا يتحدد بالفعل الظاهر وحده، بل بالنية التي تسكنه والغاية التي يقصدها.

وما دام الله قد هدى الإنسان النجدين، فإن الهداية ليست معلومةً باردة، بل نداء متجدد. كلما انحرف الإنسان بقي في الوحي ما يدعوه إلى العودة، وفي الفطرة ما يوقظه، وفي الندم ما يخبره أن الطريق الذي اختاره لا يشبه ما خُلق له. وما أجمل أن باب الرجوع لا يُغلق ما دامت الروح في الجسد؛ فقد يطيل الإنسان الوقوف أسفل العقبة، وقد يبدد سنوات في الطريق الآخر، لكنه يستطيع أن يبدأ الاقتحام من اللحظة التي يصدق فيها مع الله.

وهكذا تنتقل السورة بالإنسان من غرور الاستغناء إلى شهود النعمة، ومن شهود النعمة إلى ثقل المسؤولية، ومن وضوح الطريق إلى

ضرورة الحركة. فلا فضل للعين إذا تعمدت ألا ترى موضع الرحمة، ولا نجاة للسان إذا أحسن وصف الفضيلة ولم ينطق بالحق، ولا عذر لمن هُدي النجدين ثم اختار المنحدر لأن الصعود أتعبه. لقد اكتملت أدوات الإنسان، وبان له الطريق، ولم يبق إلا السؤال الذي ستفتحه الآيات التالية كأنه باب شاهق في قلب السورة:

هل سيظل الإنسان واقفاً أمام العقبة، أم سيقتمهما؟

الفصل الرابع

اِقْتَحَمُ الْعَقَبَةَ: حِينَ لَا يَكْفِي أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ الطَّرِيقَ

تأملات في قوله تعالى:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾
﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿أَوْ﴾
مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿

تصل السورة هنا إلى قلبها النابض، وإلى الكلمة التي تجتمع حولها
حركتها كلها: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾. لقد خلق الإنسان في كبد، ومنح
العينين واللسان والشفنتين، وهدي النجدين، وقامت عليه الحجة بما أُعطي
من أدوات الإدراك والتمييز؛ لكن شيئاً من ذلك لا يغنيه إن ظل واقفاً
أمام العقبة. فعرفة الطريق لا تعادل السير فيه، ووصف الجبل لا يرفع
الإنسان إلى قمته، والإعجاب بالشجعان لا يجعل المتفرج شجاعاً، والإقرار
بفضيلة الرحمة لا يُشبع جائعاً ولا يفك أسيراً ولا يمسخ عن وجهه يتيم
وحشة الحرمان.

إن السورة لا تقول: فلم يعرف العقبة، ولا تقول: فلم ينظر إليها، وإنما تقول: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾. والاقترحام لفظ ممتلئ بالحركة والمكابدة والمواجهة؛ يوحي بحاجز يقاوم العابر، وطريق لا يفتح نفسه للمترددين، وصعود يحتاج إلى إرادة تدفع صاحبها في وجه الثقل. ليس الاقترحام خطوةً لينةً في أرض ممهدة، بل دخول بقوة العزم فيما تستثقله النفس، ومجازة للحاجز الذي يقف بين الإنسان وبين صورته الكريمة التي أرادها الله له.

ولفظ العقبة يصور الخير لا بوصفه زينةً تضاف إلى الحياة من غير تكلفة، بل صعوداً أخلاقياً. فالهبوط لا يحتاج إلى جهد كبير؛ تكفي الغفلة حتى يخدر الإنسان، ويكفي أن يترك نفسه لشحها حتى تغلق يدها، ولهاها حتى يستعبدها، ولكبرها حتى تحتقر الناس، وتخوفها حتى تصمت عن الحق. أما الصعود فيحتاج إلى يقظة ومجاهدة واختيار متجدد؛ لأن الإنسان لا يرتفع بأثقاله كلها، ولا يبلغ القمة وهو يحتفظ بكل ما اعتاده من أنانية وحرص واستعلاء.

ولكل إنسان عقبته الخاصة، وإن كانت القيم التي تهديه عامة. قد تكون عقبة أحدهم مألأً يحبس الشح في يده، وعقبة آخر كلمة اعتذار يأبى كبره أن يقولها، وعقبة ثالث شهوة تنزين له كلما هم بالتوبة، وعقبة رابع منصباً يخشى فقده إن صدع بالحق، وعقبة خامس جرحاً قديماً حوَّله إلى رخصة دائمة للقسوة. وقد تكون العقبة حقاً يعرفه الإنسان، لكنه يؤجل أدائه؛ أو مظلمةً يتذكرها، لكنه يختبئ من ردها؛ أو قريباً محتاجاً لتعقد العلاقة به، فيبحث عن فقير بعيد يمنحه المال كيلا يقتحم حرج القرب.

وليست المشكلة دائماً في أن الإنسان لا يحب الخير، بل قد يحبه ما دام لا يطالبه بشيء من محبوباته. يحب الكرم في القصص، ويحب الشجاعة في الخطب، ويحب الرحمة حين يتحدث عنها، لكنه حين تصبح الفضيلة خصماً من ماله، أو تنازلاً عن كبريائه، أو مخاطرةً بمكانته، تظهر العقبة. عندها ينكشف الفارق بين الذوق الأخلاقي والإرادة الأخلاقية: فالأول يُعجب بالجمال، والثانية تدفع ثمنه.

والقرآن لا يطلب من الإنسان أن يطير فوق العقبة، ولا أن ينكر وعورتها، بل أن يقتحمها. إنه يعترف ضمناً بثقل التكليف على النفس، وبأن طريق التزكية لا يخلو من مقاومة؛ ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يسيء الظن بإيمانه كلما شعر بالمشقة، فقد تكون المشقة هي الدليل على أنه يواجه موضعاً حقيقياً من مواضع نفسه. الخطر ليس أن يجد العقبة صعبة، وإنما أن يتخذ من صعوبتها حجة للإقامة أسفلها.

إن كثيراً من الناس لا يرفضون الصعود صراحةً، بل يؤجلونه. يقول أحدهم: سأعطي حين يكثر مالي، وسأصلح علاقتي حين يعتذر الآخر، وسأعود إلى الله حين تهدأ الظروف، وسأنصر الحق حين تصبح نصرتة آمنة، وسأتفرغ للرحمة بعد أن أنتهي من معاركي الشخصية. وهكذا يتحول التأجيل إلى طريق آخر، وتمر السنوات بينما يظل الإنسان يهين نفسه للبدء، حتى يكتشف أن العمر كان هو الممر الوحيد إلى العقبة، وأنه أنفق في انتظار لحظة خالية من الكلفة لم تُخلق في هذه الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ عتاب يحمل حسرة الإمكان الضائع؛ فقد كان يستطيع أن يصعد، وكانت الأدوات معه، والطريق ميسراً له، لكنه لم يفعل. إن المأساة ليست أن الإنسان لم يُمنح فرصة النجاة، بل أن تكون النجاة قريبةً منه ثم يختار ما دونها، وأن تكون في يده عينان تريان ولسان يسأل وهداية تدل، ثم يبقى أسير الجدار الذي كان يستطيع تجاوزه.

وقد يبدو التعبير غريباً لأول وهلة؛ لأن الإنسان خلق في كبد، ومع ذلك يُطالب باقتحام عقبة تزيده مشقةً. لكن السورة تكشف أن الإنسان لن يخرج من الكبد بالهروب من الصعود؛ فالمنحدر نفسه يحمل كبدًا من نوع آخر: كبد الشح، والخوف، والقلق على الصورة، والعبودية للمال، والصراع من أجل التفوق، ووحشة القلب الذي لا يسع أحداً. كلا الطريقتين فيه تعب، لكن أحدهما تعب يلد الحرية، والآخر تعب يضاعف القيود؛ أحدهما جرح يفتح الروح للنور، والآخر لذة عابرة تنتهي بظلمة مقيمة.

ثم يأتي الاستفهام القرآني المهيّب: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾. وحين يأتي هذا الأسلوب في القرآن فإنه يعظم شأن المذكور، ويرفعه فوق التقدير العابر، ويهيئ القلب لتلقي حقيقة لم يكن ليحيط بمقدارها من تلقاء نفسه. كأن الإنسان يرى العقبة من بعيد فيظنها عملاً يسيراً أو شعاراً أخلاقياً، فيقال له: وما الذي أدراك بحقيقتها؟ وما الذي أعلمك بوزنها عند الله؟ وما الذي جعلك تظن أن البطولة هي ما تعارف الناس على تسميته بطولة؟

لقد أعادت المجتمعات عبر التاريخ تعريف البطولة على مقاس القوة المادية؛ فجعلتها فيمن يغلب، ويفتح، ويجمع، ويتقدم على الآخرين. أما سورة البلد فتنتقل البطولة إلى موضع آخر: البطل هو الذي يفك القيد عن رقبة إنسان، ويطعم في زمن الجوع، ويبحث عن اليتيم القريب والمسكين الذي أذله الفقر. البطولة هنا ليست أن تتسلق فوق ظهور الناس، بل أن تحمل أحدهم ليخرج من الحفرة؛ وليست أن يكثر ذكر اسمك، بل أن يقل بسبك عدد المتألمين.

وتأتي الإجابة الأولى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾. إن أول صورة للاقتحام هي تحرير الإنسان. وفي أصل الدلالة إعتاق الرقبة من الرق، وقد جعل الإسلام تحرير الأرقاء قربةً عظيمةً وكفارةً في جملة من التشريعات، وفتح من الأبواب العملية ما يفضي إلى تضيق نظام الرق الموروث وتحرير الإنسان من قيده. وقد نزل القرآن في عالم كان الرق جزءاً راسخاً من بنيته الاقتصادية والاجتماعية، فلم يكتف بإثارة عاطفة مجردة تجاه المسترق، بل جعل فك الرقبة عبادةً واقتحاماً للعقبة.

ولم يقل: تحرير جسد فحسب، بل عبّر بالرقبة؛ لأنها موضع القيد وصورة الإنسان المملوك الذي سُلبت إرادته. وفكها ليس إحساناً مادياً عابراً، بل ردُّ لمعنى الإنسان إلى الإنسان. أنت لا تعطيه شيئاً يستهلكه ثم ينتهي، وإنما تعيد إليه نفسه، وحقه في الحركة، وحقه في القرار، وحقه في أن يكون ذاتاً لا متاعاً في يد غيره.

وفي تقديم ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ دلالة على أن الرحمة القرآنية لا تتجه إلى تسكين الألم فقط، بل إلى تحرير مصدره. قد تطعم المقيد، فيبقى القيد؛ أما فك الرقبة فيعيد ترتيب العلاقة من أساسها. وهذه قيمة حضارية

عظيمة: ليس الخير أن تمنح المستضعف ما يكفيه للبقاء داخل ضعفه
فحسب، بل أن تزيل عنه ما استطعت البنية التي تصنع ضعفه، وأن
تساعده على استرداد قدرته وكرامته واستقلاله.

ولا يجوز أن نذيب المعنى التشريعي المباشر للآية في رموز فضفاضة؛
فكك الرقبة في سياقه المعروف تحرير المملوك. لكن هداية الآية الأوسع
توقظ الضمير تجاه كل قيد غير مشروع يُسلب به الإنسان حريته وكرامته:
قيد الظلم، وقيد الدين الذي يعجز صاحبه عن أدائه، وقيد الاستغلال،
وقيد الجهل الذي يحاصر الإمكانيات، وقيد الخوف الذي يخرس
المظلوم. فكل سعي مشروع يعيد إلى الإنسان حقاً مسلوباً أو يدفع عنه
أسراً باطلاً يحمل شيئاً من روح التحرير التي تعظمها الآية، دون أن
نزعم أنه يلغي معناها الأصلي أو يحل محله.

ومن أعظم القيود التي يحتاج الإنسان إلى فكها قيده الداخلي؛ فقد
يكون ظاهراً حراً، لكنه مملوك لشهوة، أو رهينة لنظر الناس، أو تابعاً
لخوفه، أو عبداً لملكه. ومع أن الآية تتحدث ابتداءً عن فك رقبة إنسان
آخر، فإن منطقها يربي المحرر نفسه على الحرية؛ إذ لا يستطيع أن يحرر

غيره حقًا من كان يتغذى على استعباده، ولا يقدر أن يرد للناس كرامتهم من جعل كبريائه قائمًا على إذلالهم. حين يفك المؤمن رقبةً، فإنه يفك في داخله عقدة التملك والاستعلاء، ويعترف عملياً بأن البشر عباد لله لا أشياء في حيازته.

ثم تنتقل السورة إلى صورة أخرى من الاقتحام: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾. لم تقل: أو إطعام فحسب، بل وضعت الإطعام داخل زمن مخصوص: يوم ذي مسغبة، أي يوم مجاعة وشدة وجوع. وهنا ترتفع قيمة الفعل لأن الحاجة قد اشتدت، ولأن الطعام نفسه قد قلّ، ولأن المعطي ربما كان يخشى ما يخشاه الآخرون. فالعطاء في زمن الوفرة خير، لكنه في زمن الندرة امتحان أشد؛ إذ لا يعطي الإنسان من الفائض الذي استغنى عنه، بل يقطع من الأمن الذي كان يمكن أن يحتفظ به لنفسه.

إن قيمة العمل لا تقاس بحجمه المجرد فقط، بل بالسياق الذي وقع فيه، وبحاجة من وجه إليه، وبمقدار ما تغلب به صاحبه على شحه. لقمة في يوم مسغبة قد تزن عند الله موائد كاملة في أيام الرخاء؛ وقطرة ماء

في فلاة قد تكون حياةً بأسرها، بينما لا يشعر بها من يعيش إلى جوار
النهر. ليس كل قليل صغيراً، ولا كل كثير عظيمًا؛ فموازن السماء
تعرف ما وراء الأرقام.

والمسغبة لا تعني مجرد خلو المعدة من الطعام، بل تحمل جوعاً كاملاً
من الندرة والخوف والبحث والانتظار. الجائع لا يتألم في جسده
وحده؛ إذ قد يجرحه شعوره بأن الناس يأكلون ولا يرونه، وأن العالم
واسع لكنه لم يترك له موضعاً على مائدته. لهذا يكون الإطعام أكثر من
نقل مادة غذائية؛ إنه رسالة إلى الإنسان المنسي تقول: أنت مرئي،
وجوعك ليس شأنًا هامشيًا، وكرامتك لم تسقط لأن يدك خلت.

إن القرآن يجعل الجوع قضيةً إيمانية؛ فلا يسمح للتدين أن يصعد إلى
السماء بينما يتجاوز البطون الخاوية في الأرض. وما أقسى أن يشبع
المؤمن من المعاني ويترك أخاه جائعاً إلى الخبز، أو أن يتحدث طويلاً
عن الرحمة دون أن تتحول الرحمة في يده إلى طعام! ليست الروحانية
القرآنية هروباً من حاجات الجسد، بل إدراكاً لقدسية الإنسان في

مجموعه؛ فن أكرم روحاً ولم يبال بجسدها المتضور لم يفهم كيف كرم
الله بني آدم.

والإطعام في يوم المسغبة يقاوم منطق الخوف الذي يدفع الناس
وقت الأزمات إلى الانغلاق على أنفسهم. ففي أوقات الندرة تتعري
النفوس؛ يخزن بعضهم فوق حاجته، ويرفع آخرون الأسعار، ويتاجرون
بجوع الناس، ويحولون الكارثة العامة إلى فرصة خاصة للثراء. أما
مقتحم العقبة فيسلك الاتجاه المعاكس: حين يغلق الجميع أيديهم يفتح
يده، وحين يقول الخوف «نفسى» يقول الإيمان «نحن»، وحين يرى
المحتكر في الجوع سوقاً يرى المؤمن فيه أمانة.

والمؤمن لا ينتظر أن تنتهي المسغبة حتى يطعم؛ لأن الطعام الذي
يأتي بعد انقضاء الجوع قد يصبح تكريماً، لكنه لم يعد إنقاذاً. الرحمة
تعرف توقيتها؛ تدرك أن بعض الحاجات إذا أُجلت تحولت إلى مأس،
وأن كلمة المواساة بعد انكسار القلب الكامل لا تؤدي دائماً وظيفة
الكلمة التي كان ينبغي أن تُقال في أول الانكسار. ليست الفضيلة أن

تفعل الخير فحسب، بل أن تفعله حين يحتاج إليه صاحبه، لا حين يناسب جدولك أو صورتك.

ثم تحدد السورة وجهة الطعام: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾. اليتيم هو من فقد أباه قبل بلوغه، ففقد بذلك سنداً من أعظم أسانيد الطفولة وحمايةً كان ينبغي أن تحيط بنوه. والقرآن لا يذكر اليتيم بوصفه موضوعاً للشفقة العابرة، بل يضعه في قلب التكليف الأخلاقي، ويجعل طريقة المجتمع في معاملته مقياساً لصدقه. فالطفل الذي فقد أباه لم يخترقته، ولم يسهم في صناعة ضعفه، ومع ذلك قد يجد نفسه في عالم يقيس الناس بما يملكون من قوة، فيدفع ثمن فقد لم يكن له فيه يد.

ووصفه بأنه ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ يضيف معنى القرابة؛ فهو يتيم قريب النسب، اجتمع له حق الحاجة وحق الرحم. وقد يكون ذكر القرابة لأن النفس تعرفه وتراه، فلا حجة لها بأنه غاب عنها، ولأن الإحسان إلى القريب يجمع الصدقة والصلة. كما أن القريب المحتاج قد يكون أشد حرجاً من السؤال؛ يعرف أهله، ويعرفونه، ويحجب كبرياء القرابة صوته، فيتألم في صمت بينما يظن الناس أن قربه منهم يغنيه.

ومن غرائب النفس أنها قد تنشط للعطاء البعيد أكثر من القريب؛ لأن البعيد لا يحمل معها تاريخاً معقداً، ولا يطالبها بإصلاح علاقة، ولا يوقظ في داخلها منافسةً قديمة أو ضغينةً مكتومة. قد يسهل على الإنسان أن يبدو رحيماً أمام الغرباء، ويصعب عليه أن يرحم قريباً لا يحبه أو يختلف معه. ولذلك يصبح القريب عقبةً خاصة؛ فإطعامه ليس خروجاً على الشح وحده، بل اقتحام لما تراكم في النفس من حساسيات ومقارنات وذكريات.

والرحمة بالأقرب لا تعني حبس الخير داخل دوائر الدم، لكنها تبدأ من المسؤولية التي لا يجوز تجاوزها بحثاً عن مشاهد أبعد تمنح صاحبها ثناءً أكبر. ما معنى أن يحمل الإنسان همَّ العالم كله، ثم لا يشعر باليتم الذي يعرف اسمه ويسكن قريباً منه؟ وما معنى أن يكتب عن العدالة للبشرية بينما تضيع الحقوق في بيته؟ إن الأخلاق الصادقة تتحرك من المركز إلى الآفاق؛ تُحسن إلى القريب دون عصبية، وإلى البعيد دون منّة، فلا يجعلها القرب عمية ولا يجعلها البعد استعراضية.

ثم تقول السورة: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. والمتربة من التراب، وفي التعبير صورة لمسكنة بلغت بصاحبها غايتها حتى كأنه لصق بالتراب، لا يملك ما يفتقره، أو كأن الفقر أنزله إلى الأرض فلم يبق له من متاع الدنيا إلا غبارها. إنها ليست حاجة خفيفة يمكن تأجيلها، بل فاقة مكشوفة نزلت بصاحبها إلى أقصى درجات الضعف.

لقد بدأت السورة بالبلد بما فيه من مهابة وعلو، ثم قادتنا إلى إنسان ملتصق بالتراب. كأن القرآن يأخذ أبصارنا من الرموز الكبرى إلى الجسد المنسي عند أسفل المجتمع، ليقول إن صدق تعظيم البلد يظهر في رحمة من سقط على ترابه. لا يكفي أن تحب الوطن بوصفه خريطة أو نشيداً، إن كنت لا ترى أبناءه الذين طحنهم الجوع؛ ولا يكفي أن تفتخر بعظمة المدينة إن كانت شوارعها تخفي بشراً ينامون بلا مأوى.

والمسكين ذو المتربة لا يملك في الغالب ما يجعل الناس يقتربون منه؛ لا جاه عنده، ولا قدرة على المكافأة، ولا شبكة مصالح. والإحسان إليه لذلك امتحان للإخلاص؛ لأنه لا يستطيع أن يرد العطاء بعطاء مادي، وقد لا يستطيع حتى أن يحمل اسمك إلى المجالس.

كل ما تستطيع أن تنتظره منه دعوة صادقة، وربما لم تسمعها أبداً. ولهذا فإن يداً تمتد إليه تكون أقرب إلى التحرر من التجارة الخفية التي تفسد كثيراً من علاقات البشر.

إن العالم يميل إلى الدوران حول الأقوياء؛ تُفتح لهم الأبواب قبل أن يطرعوها، وتُقرأ رغباتهم قبل أن ينطقوا بها، بينما يحتاج الضعيف إلى أن يشرح ألمه مراراً ليصدق الناس أنه يتألم. تأتي سورة البلد لتعيد ترتيب مجال الرؤية: اليتيم والمسكين والرقبة المقيدة ليسوا على هامش الخطاب، بل في قلب العقبة التي يتحدد عندها مصير الإنسان. إنهم ليسوا عبثاً على المجتمع، بل امتحانٌ لقلبه؛ وبهم ينكشف هل تحولت قيمه إلى حياة أم ظلت شعارات تزين جدرانها.

وفي ترتيب الصور الثلاث تصاعد بديع في تحرير الإنسان وحمانيته: فك رقبة يعيد له الحرية، وإطعام في يوم ذي مسغبة يحفظ له الحياة، وتوجيه العطاء إلى يتيم ذي مقربة ومسكين ذي متربة يضمن أن الرحمة تصل إلى من اجتمع عليهم الضعف. فالإقتحام ليس عاطفةً ضبابية، بل برنامج عمل: تحرير، وإطعام، ورعاية للأشد حاجة. هكذا ينزل الإيمان

من تجريده العالي ليصبح مفتاح قيد، وقطعة خبز، ويداً تبحث عن المنسيين.

والآيات لا تذكر مقدار الطعام؛ لأن القضية ليست استعراض الكمية، بل صدق الاستجابة. قد لا يملك الإنسان أن ينهي المسغبة، لكنه يملك ألا يزيد بها بلامبالاته؛ وقد لا يستطيع تحرير كل مقيد، لكنه يستطيع أن يقاوم الاستعباد في المساحة التي تقع تحت قدرته؛ وقد لا يكفل أيتام العالم، لكنه يُسأل عن اليتيم الذي جعله الله قريباً من يده وعلمه. إن عجز الإنسان عن فعل كل الخير لا يعفيه من الخير الذي يقدر عليه.

وفي هذا تربية على الخروج من ذريعة العجز الكلي. كثيرون يواجهون مآسي العالم فينسحبون لأنهم لا يستطيعون حلها جميعاً؛ وكأن الجائع لا يستفيد من لقمة إلا إذا شبع كل الجائعين، وكأن إنقاذ شخص واحد لا قيمة له ما دام آخرون في الخطر. لكن الرحمة لا تحتقر الواحد؛ لأن الله لا يخلق الناس أرقاماً، وكل نفس عالم كامل من الألم

والأمل والكرامة. ومن أحياء نفساً فكأنما أحياء الناس جميعاً؛ لا لأن فعله شمل البشرية عدداً، بل لأن القيمة الإنسانية لا تتجزأ.

والاقتحام يتطلب قرباً من الألم؛ فلا يمكن إطعام الجائع إذا ظل الجوع فكرةً مجردة، ولا رعاية اليتيم إذا بقي رقماً في تقرير، ولا فهم المسكين ذي المتربة من وراء أسوار العيش المترف وحدها. الرحمة تحتاج إلى أن يرى الإنسان الوجوه، ويسمع الحكايات، ويعرف أن خلف كلمة «الفقراء» أفراداً لهم أسماء وذكريات وأحلام وحياء. المسافة الطويلة تحوّل المأساة إلى مفهوم، أما الاقتراب فيعيد إليها وجهها الإنساني.

لكن الاقتراب ينبغي ألا يتحول إلى انتهاك لكرامة المحتاج؛ فليس من الرحمة أن نصور ضعفه لنصنع مجدنا، أو نعرض دمعته ليثني الناس على عطائنا، أو نحوله إلى خلفية في مشهد البطولة الذي نكتبه لأنفسنا. المقتحم حقاً لا يصعد على كرامة من يساعده، بل يصعد بحمايتها. وما قيمة طعام يملأ البطن إذا كسر الروح؟ وما قيمة عطاء يجعل الفقير يدفع من حياته ثمناً أكبر مما أخذ من المال؟

إن السورة تحرر المعطي كما تحمي المعطى. تحرر المعطي من الشح ومن عبادة الذات، وتحمي المعطى من القيد والجوع والضياع. ولذلك فالعقبة واقعة داخل النفس وخارجها معاً: في الداخل شحٌ ينبغي اقتحامه، وفي الخارج رقبة تحتاج إلى فك؛ في الداخل خوف من الفقر، وفي الخارج مسغبة حقيقية؛ في الداخل ميل إلى الأقوياء، وفي الخارج يتم ومسكين لا يملكان ما يجذبان به أنظار الناس. وكل فعل رحمة يصل بين التحررين: كلما حررت غيرك من شيء من ألمه، تحررت أنت من شيء من أنايتك.

ومع ذلك كله، لا تنتهي العقبة عند الفعل الاجتماعي؛ لأن القرآن لا يبيّن الخير على عاطفة منفصلة عن الإيمان، ولا يكتفي باندفاع مؤقتة قد تمخّذ مع تغير المزاج. سيأتي بعد هذه الأعمال قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليربط تحرير الإنسان وإطعامه بأصل العبودية لله، ثم ينقل الفرد من عمله المنفرد إلى جماعة تتواصى بالصبر والمرحمة. فكأن الاقتحام درجات: تحرير من القيد، وإنقاذ من الجوع، وإيمان يثبت المعنى، وصبر يحفظ الطريق، ومرحمة تتحول إلى خلق جماعي.

إن ﴿ثُمَّ﴾ القادمة لن تكون فصلاً بين العبادة والرحمة، بل ربطاً يرتفع به العمل إلى تمامه. فقد يعطي الإنسان بدافع الشهامة أو العادة أو حب الذكر، وهذه معانٍ قد يكون فيها خير نسبي، لكن الإيمان يححر العطاء من تقلب المزاج ومن انتظار المقابل، ويجعله جزءاً من عهد الإنسان مع الله. حينئذ لا يطعم لأنه شعر بالعاطفة لحظة ثم انتهت، بل لأنه يرى في الجائع عبداً لله له حق، ويرى في المال أمانة، ويرى في نفسه مسؤولاً، ويرى في الرحمة طريقاً إلى رضا ربه.

وهكذا تكشف السورة أن الصعود إلى الله يمر من جوار الإنسان؛ وأن من أراد القمة دون أن يخني للضعيف فقد أخطأ الطريق؛ وأن العبادة التي لا توسع في القلب موضعاً للرحمة تحتاج إلى مراجعة صدقها وأثرها. ليست العقبة في أن يعرف المرء أسماء الفضائل، بل أن يسمح لها بتغيير توزيع ماله ووقته وانتباهه ومكانته. العقبة أن يضع الضعيف في مركز حسابه، وأن يرى في حاجته نداءً لا ضوضاء، وفي كرامته حداً لا يجوز تجاوزه، وفي نجاته جزءاً من نجاته هو.

قد يقضي الإنسان عمره يجمع المال ليتجاوز به الناس، بينما كانت
نجاته في أن يعبر به إليهم. وقد يظن أن العلو هو أن يكون فوق المحتاج،
بينما تخبره السورة أن العلو الحق يبدأ حين ينحني إليه رحمةً ثم ينهض به.
وقد يهرب من الألم طلباً للسلامة، فيكتشف أن القلب الذي لا يؤلمه
جوع الآخرين قد سلم من الوجع، لكنه خسر الحياة.

فالعقبة ليست في الطريق فقط؛ العقبة هي تلك النسخة الضيقة من
الإنسان التي تحب أن تنجو وحدها. واقتحامها هو أن يولد في داخله إنسان
أوسع: يرى بالعينين ما وراء مصلحته، وينطق باللسان بما يرفع لا بما
يهدم، ويستعمل الشفتين في كف الأذى وإطلاق الخير، ويختار من
النجدتين الطريق الذي يصعد به ولو شق، ثم يحمل في صعوده رقبةً
مقيدة، ويتيمماً قريباً، ومسكيناً ألصقه الفقر بالتراب.

عندئذ لا يعود الكبد لعنةً مبهمة، بل يصبح ثمناً للمعنى؛ ولا يعود
المال وسيلةً لقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، بل شاهداً صامتاً على أن
الإنسان مر من هنا وخفف شيئاً من أثقال العالم. وذلك هو الاقتحام:
أن تدخل ميدان الحياة فلا تزيد القيود قيداً، ولا الجوع جوعاً، ولا اليتيم

وحشة، ولا التراب ذلًّا؛ بل تترك وراءك حرية أكبر، وشبعاً أكرم،
وقلباً أقل وحدة، وعالمًا اقترَب — ولو بمقدار لقمة — من الرحمة.

مِنَ الْفِعْلِ الْفَرْدِيِّ إِلَى الْمُجْتَمَعِ الْمُتَرَاخِمِ

تأملات في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ﴾

بعد أن كشفت السورة عن معالم العقبة في صور عملية محسوسة: ﴿فَكَ رُقَبَةٍ﴾ ، و﴿إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ، لیتیم ذی مقربة أو مسکین ذی متربة، جاءت هذه الآية لترد تلك الأعمال إلى أصلها الذي يمنحها دوامها ووجهتها ومعناها الكامل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. فالقرآن لا يفصل بين الإيمان والإحسان إلى الإنسان، ولا يجعل العقيدة فكرةً منعزلةً في الذهن، ولا يجعل العمل الاجتماعي بديلاً عن العبودية لله؛ بل يُولف بين صحة المنبع وجمال الأثر، حتى يصدر الخیر من قلب موصول بالله، ويتجلى الإيمان في حياة الناس رحمةً وصبراً وتحريراً وإطعاماً.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا ذات دلالة عميقة؛ فهي لا تعني أن الإيمان تفصيل متأخر قليل الشأن يأتي بعد أعمال البر، وإنما تحمل معنى الرتبة والتراخي في الذكر، كأن السورة بعد أن عرضت مشاهد الاقتحام الظاهرة ترتفع بنا إلى الشرط الذي يضمها ويزكيها: أن يكون صاحبها من الذين آمنوا. فكم من فعل عظيم في أعين الناس قد يصغر عند الله لأن القلب طلب به نفسه، وكم من عطاء محدود قد يعظم لأن صاحبه أخرجه من قلب مخلص، وكم من حركة في ظاهرها رحمة تخفي وراءها رغبة في السيطرة أو صناعة المجد الشخصي.

إن الإيمان ليس خاتماً يوضع على الأعمال من الخارج، بل روح تسري فيها من الداخل. هو الذي يحرر العطاء من انتظار الجزاء البشري، ويجعل المؤمن قادراً على أن يحسن إلى من لا يملك مكافأته، وأن يواصل حين لا يرى ثمرة عاجلة، وأن يختفي خلف فعله بدل أن يخفي الفعل خلف اسمه. فإذا فك رقبة لم يشعر أنه خلق حرية الإنسان من العدم، بل أدرك أنه ردَّ حقاً أقره الله؛ وإذا أطعم جائعاً لم يتصرف بوصفه مالِكاً مطلقاً يفيض من علوه على من تحته، بل بوصفه عبداً أوصل رزق الله إلى عبد آخر.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انتقال من الفرد المنعزل إلى الجماعة. لم تقل الآية: ثم آمن وحده، بل جعلته من الذين آمنوا، أي داخلاً في رابطة إيمانية، ومنتمياً إلى جماعة تعرف ربها، وتحمل معاً أعباء الطريق، ويسند بعضها بعضاً في الصعود. فالاحتحام قد يبدأ بقرار فردي، لكنه لا يكتمل في عزلة؛ لأن النفس تضعف، والطريق يطول، والعقبات تتجدد، والمجتمع المحيط قد يزين الانحدار ويسخر من الصاعدين.

إن من رحمة الله بالإنسان أنه لم يكلفه أن يحمل الإيمان وحده في صحراء الحياة، بل جعله جزءاً من أمة تتواصى. فالفرد قد يرى الحق اليوم ثم يغشاه غبار الفتنة غداً، وقد يمتلئ عزيمَةً في ساعة ثم يثقل في ساعة أخرى؛ وهنا تأتي الجماعة المؤمنة لا تلغي مسؤوليته، بل لتعينه على الوفاء بها. حين تنخفض همته تذكره، وحين يعمى عن موضع قدمه تبصره، وحين يغلبه الألم تحيطه، وحين يوشك أن تتحول جراحه إلى قسوة تعيد إليه معنى الرحمة.

غير أن الانتماء إلى الذين آمنوا ليس بطاقة هوية ولا اسماً اجتماعياً يُورث، بل اشتراك في حقيقة إيمانية لها آثارها. قد يزعم الإنسان أنه من جماعة المؤمنين، لكن السورة تضع معيار الانتماء بعد الاسم مباشرة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾. إنها جماعة تعرف بعنايتها بثبات بعضها، وبحراسة الرحمة في علاقاتها، لا بكثرة شعاراتها ولا بارتفاع أصواتها وحده.

والتواصي أعمق من النصيحة العابرة؛ ففيه معنى التبادل والاستمرار والتعاهد. لا يقف واحد دائماً في مقام الواعظ والآخرين في مقام المتلقين، بل يوصي بعضهم بعضاً، لأن كل إنسان يحتاج إلى التذكير مهما علا علمه، وكل قلب معرض للفتور مهما طال طريقه. اليوم أحملك، وغداً تحملي؛ اليوم أذكرك بالصبر، وغداً تردني أنت إلى الرحمة؛ اليوم أراك قوياً فأستند إليك، وغداً تجدني ثابِتاً حين تنعب. هكذا تنشأ الجماعة من تداول النور، لا من احتكار فرد له.

وفي صيغة ﴿تَوَاصَوْا﴾ هدم لطغيان الوعظ من الأعلى؛ فالمؤمن لا ينصح أخاه بوصفه كاملاً يخاطب ناقصاً، بل بوصفهما مسافرين على

الطريق نفسه، لكل منهما مواضع قوة وضعف. ومن لا يشعر بحاجته إلى وصية الآخرين قد يتحول نصحه إلى تعالٍ، ويصير كلامه عن الفضيلة طريقة خفية لتأكيد تفوقه. أما الذي يعرف ضعف نفسه، فإنه يوصي برفق، ويقبل الوصية بتواضع، ويدرك أن اليد التي تنتشله اليوم ربما تكون يد من ظنه أقل منه.

الصبر: القوة التي تحرس طريق الاقتحام

بدأت الآية بالتواصي بالصبر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ لأن العقبة لا تُقْتَحَمُ باندفاع عاطفية قصيرة، بل بنفس طويل يستطيع أن يواصل حين تخفت حرارة البداية. قد يتحمس الإنسان لقضية عادلة يوماً، ثم يتراجع حين يدرك طول الطريق؛ وقد يطعم جائعاً مرة، لكن بناء مجتمع لا يجوع فيه الناس يحتاج إلى صبر يتجاوز اللقطة العابرة؛ وقد يتحرر من شهوة ساعة، ثم تعود إليه في صورة أخرى فتطالبه بمجاهدة جديدة.

الصبر في القرآن ليس سكوناً بارداً أمام الحياة، ولا استسلاماً للظلم، ولا رضا بالذل، بل تماسك الروح وهي تحمل الحق وسط عوامل التفتت. إنه قدرة الإنسان على ألا تفرض اللحظة عليه تعريفه النهائي،

وَألا يحول الألم المؤقت وجهته الدائمة، وألا يبيع غايته الكبرى مقابل خلاص عاجل. الصابر لا ينكر التعب، لكنه يرفض أن يجعل التعب قائداً؛ ولا يتظاهر بأنه لا يتألم، لكنه لا يمنح الألم حق اختيار طريقه.

وقد يكون الصبر على الطاعة، بأن يثبت الإنسان على الخير بعد زوال لذة البداية؛ ويكون صبراً عن المعصية، بأن يحتمل حرمان الرغبة العاجلة ليحفظ حريته وكرامته؛ ويكون صبراً على أقدار الله، بأن يستقبل البلاء دون اعتراض يقطع صلته بربه، مع جواز الحزن والشكوى إلى الله وبذل الأسباب المشروعة لدفع الضرر. وهذه المعاني كلها حاضرة في طريق العقبة؛ ففك القيود يحتاج إلى صبر، وإطعام الجائعين في أيام المسغبة يحتاج إلى صبر، وتربية النفس على الإيمان والرحمة تحتاج إلى صبر يتجدد كلما تجددت الأنانية.

والصبر الذي نتوصى به الجماعة ليس مجرد كلمات تقال للمبتلى من بعيد. فقد تكون كلمة «اصبر» قاسية إذا قالها الشبان للجائع ثم انصرف، أو قالها الآمن للخائف دون أن يحاول رفع خوفه، أو قالها القادر على إزالة الظلم للمظلوم كي يعني نفسه من المسؤولية. التواصي الحقيقي

بالصبر لا يترك المتألم وحده تحت العبء، بل يحمل معه شيئاً منه؛ فلا يقول له: اصبر على الجوع، ثم يحرس عنه الطعام، وإنما يطعمه ويقوي قلبه معاً.

إن النصيحة التي لا تدفع شيئاً من كلفة الألم قد تتحول إلى وسيلة لحماية راحة الناصح. لذلك سبق في السورة فك الرقبة والإطعام، ثم جاء التواصي بالصبر؛ فالترتيب يحرس مفهوم الصبر من أن يصبح أداة لتخدير الضعفاء. المؤمن لا يطالب المسكين بأن يصبر على متربته وهو قادر على رفعه منها، ولا يطلب من المقيد أن يحتمل القيد كي تبقى مصالح الأقوياء آمنة، بل يفك ويطعم، ثم يتواصى مع إخوانه بالصبر على مواصلة طريق التحرير والرحمة.

والصبر ليس فضيلةً خاصة بالمظلوم وحده؛ فالذي ينصره يحتاج كذلك إلى الصبر. يحتاج إلى الصبر على بقاء التغيير، وعلى قلة المعين، وعلى سوء الفهم، وعلى طول المسافة بين زرع الخير وظهور ثمرته. كثير من الأعمال العظيمة هُجرت لأن أصحابها طلبوا حصداً سريعاً، فلما لم يجدوه ظنوا أن البذور ماتت. لكن بعض البذور تعمل طويلاً تحت

التراب، تبني جذورها في الصمت، ولا يراها العابرون حتى تفاجئهم
شجرة.

وفي التواصي بالصبر مقاومة لثقافة استعجال النتائج. فالعالم قد يحتفي
بالضجيج أكثر مما يحتفي بالبناء الهادئ، ويمنح الشهرة لمن يعلن بداية
الطريق لا لمن يثبت حتى نهايته. أما القرآن فيربي المؤمن على أن قيمة
الفعل لا تتوقف على سرعة تصفيق الناس له؛ فقد يعمل سنين ولا يرى
أثره، لكنه يعلم أن الله رأى، وأن الحقيقة لا تقاس بمزاج الجمهور، وأن
عليه أن يؤدي ما يستطيع لا أن يضمن ما ليس في يده من النتائج.

والصبر يحفظ الإنسان من أن تتحول قضيته العادلة إلى نسخة من
الظلم الذي يقاومه. فمن استعجل النصر قد يبرر لنفسه وسائل فاسدة،
ويظن أن شرف الغاية يغسل قبح الطريق، ثم يصل - إن وصل -
بقلب يشبه قلب خصمه. الصبر الأخلاقي ليس صبراً على الزمن فقط،
بل صبر على نقاء الوسيلة؛ أن تظل عادلاً وأنت تطلب العدل، ورحيماً
وأنت تدافع عن المظلوم، وصادقاً وأنت تواجه الكذب.

ولا يصبر الإنسان وحده دائماً؛ فقد يأتيه يوم تضعف فيه رؤيته، فيحتاج إلى أخ لا يكتفي بأن يذكره بالغاية، بل يذكره بنفسه التي كاد ينساها. إن بعض الناس لا يحتاجون في لحظات الانكسار إلى خطبة، بل إلى حضور؛ إلى إنسان يجلس قريباً منهم ويقول بصمته: لن تحمل هذا وحدك. وهذا أيضاً من التواصي بالصبر، فالصبر قد يُنقل بالكلمات، وقد يُمنح بالقرب، وقد يثبت في قلب المنكسر لأن قلباً آخر آمن بإمكان نهوضه.

المرحمة: حين تصبح الرحمة ميثاقاً لا انفعالاً

ثم تقول الآية: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾. لم تقل: وتواصوا بالرحمة فقط، بل جاءت بصيغة المرحمة، وهي كلمة تحمل معنى الرحمة الواسعة المتبادلة المتجسدة في السلوك، كأنها مناخ تعيش فيه الجماعة لا خطراً يمر في قلب فرد. ليست المرحمة لحظة تأثر عابرة تنتهي حين يغيب المشهد المؤلم، بل خُلق يُتعاهد عليه، ومنهج نتواصى الجماعة ألا تسمح للقسوة أن تطرده من علاقاتها.

والمرحمة أوسع من الصدقة، وإن كانت الصدقة من صورها؛ فقد يحتاج الإنسان إلى مال، وقد يحتاج إلى إنصاف، أو ستر، أو عفو، أو كلمة تحفظ كرامته، أو فرصة جديدة بعد عثرة، أو من يفهم ضعفه دون أن يحوله إلى تهمة دائمة. بعض الجراح لا يعالجها المال، وبعض الفقراء أغنياء في جيوبهم لكنهم فقراء إلى قلب يأمنون عنده من الحكم القاسي، وبعض الأسرى لا تحيط بأعناقهم سلاسل الحديد بل تحيط بأرواحهم أحكام الناس التي لا تسمح لهم بالتغيير.

والرحمة في التصور القرآني ليست رخاوةً تلغي الحق، ولا عاطفةً عمياء تسوي بين المحسن والمسيء، ولا تنازلاً عن العدل؛ بل هي روح العدل التي تمنعه من التحول إلى انتقام. قد تقتضي الرحمة أن تعفو، وقد تقتضي أن تحمي المظلوم بمنع الظالم وردعه؛ لأن ترك الظالم يواصل ظلمه ليس رحمةً به ولا بمن يظلمهم. الرحمة الحكيمة تضع الشيء في موضعه، لكنها حتى حين تحزم لا تتلذذ بالإهانة، ولا تجعل العقوبة فرصةً لتفريغ الكراهية.

وما أحوج الصبر إلى المرحمة، وما أحوج المرحمة إلى الصبر. فالصبر إذا انفصل عن الرحمة قد يصنع شخصاً صلباً يحتمل الطريق لكنه لا يحتمل ضعف الناس؛ يرى تعثرهم فيحتقرهم لأنه نسي معاركه القديمة، ويطالبهم أن يصعدوا بالسرعة التي صعد بها، مع أن لكل نفس جراحها وأثقالها. والرحمة إذا انفصلت عن الصبر قد تصبح عاطفةً سريعةً تشتعل وتنطفئ، وتريد إصلاح الآلام دفعةً واحدة، فإذا اصطدمت بتعقيد البشر يئست منهم. بالصبر تدوم الرحمة، وبالرحمة لا يتحول الصبر إلى قسوة.

والجمع بينهما يرسم الشخصية المؤمنة في توازنها: قلب رقيق لا ينكسر أمام الطريق، وإرادة صلبة لا تتحجر تجاه الناس. إنها قوة حانية، ورحمة ثابتة؛ لا تفر من الألم، ولا تتلذذ به؛ لا تتخلى عن الواجب بحجة اللين، ولا تسحق الضعيف باسم الحزم. وهذا التوازن من أعسر العقبات؛ فكثيرون يستطيعون أن يكونوا أقوياء إذا أغلقوا قلوبهم، ويستطيعون أن يكونوا رحماء ما داموا غير مطالبين بمواجهة شاقة، لكن المؤمن يتعلم أن يحمل القلب المفتوح والإرادة الثابتة معاً.

والتواصي بالرحمة يعني أن القسوة قد تتسلل حتى إلى الجماعة التي تحمل الحق، فحتاج إلى حراسة مستمرة. قد تبدأ الجماعة مظلومةً مستضعفة، ثم تمنحها الأيام قدرةً، فتنسى ألمها القديم وتكرر ما كانت تشكو منه. وقد يتسلل إليها منطق التصنيف، فترحم من يشبهها، وتقسو على من يختلف معها، كأن الإنسانية تُمنح ببطاقة الانتماء. لذلك لا يكفي أن تكون الرحمة موجودةً في البدايات، بل ينبغي أن تبقى موضوع تواصٍ ومراجعة، خصوصاً حين نغير موازين القوة.

إن الرحمة الحقيقية تُختبر عند القدرة، لا عند العجز. قد يعفو الضعيف لأنه لا يستطيع العقاب، لكن المقتدر حين يعفو في موضع العفو يكشف أن القوة في يده ولم تدخل قلبه. وقد يتحدث المحروم عن حقوق الآخرين لأنه واحد منهم، لكن الامتحان الأشد يبدأ حين تتسع يده: هل يظل يرى من تركهم وراءه؟ هل تحفظ الذاكرة جوعها القديم فتقوده إلى إطعام الجائع، أم يحول الثراء الفقير السابق إلى أشد الناس قسوةً على الفقراء لأنه يريد أن ينسى صورته القديمة؟

والمرحمة تعني أن يبقى الإنسان قادراً على رؤية الشخص وراء خطئه، والضعف وراء حدثه، والحكاية وراء الموقف الذي يبدو مستفزاً. ليس هذا تبريراً لكل خطأ، لكنه امتناع عن اختزال الإنسان في أسوأ لحظاته. كم من شخص عُوقب على فعله مرةً، ثم ظل المجتمع يعاقبه بنظرته كل يوم! وكم من تائب خرج من ذنبه، لكن الناس أبوا أن يخرجوا من ذاكرته! إن التواصي بالرحمة يحمي أبواب العودة من أن يغلقها المتدينون في وجه من فتحها الله لهم.

وفي الرحمة بالآخرين اعتراف ضمني بحاجة الإنسان إلى رحمة الله. فمن عرف كثرة عثراته استحمياً أن يتعامل مع عثرات الناس بروح القاضي الذي لم يخطئ قط، ومن عرف كيف ستره الله لم يجعل كشف عيوب الآخرين هواية، ومن ذاق لطف الله في لحظات ضعفه لم يسخر من ضعف أخيه. إن القسوة المفرطة على الناس قد تنشأ من غفلة الإنسان عن نفسه؛ ولو أبصر كم مرة حملته الرحمة الإلهية حين كان يستحق أن يسقط، لتغيرت نبرة صوته وهو ينصح ويحاسب.

والتواصي بالمرحمة يبدأ من اللغة؛ فقد تحمل العبارة معنى صحيحاً لكنها تصل في هيئة جارحة، وقد يظن الناصح أن الحق يمنحه الحق في تحقير من يخاطبه. لكن الحقيقة لا تحتاج إلى الإهانة كي تثبت، والنصيحة لا تزداد صدقاً كلما ازدادت قسوة. إن من مقاصد البيان أن يهدي، فإذا تحول الخطاب إلى رغبة في الانتصار على المخاطب ضاعت الغاية، وربما بقيت المعلومة صحيحةً وماتت الحكمة.

واللسان الذي ذكر الله الإنسان بأنه وهبه إياه يجد هنا وظيفته الأسمى: أن يتواصى بالصبر والرحمة. كان يمكن للسان أن يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ فيزي صاحب، ويمكنه أن يتحول إلى وسيلة يحمل بها المؤمن أخاه على الصعود. اللسان ذاته قد يبني تمثال الأنا، وقد يبني مجتمعاً متراحماً؛ والفرق ليس في العضو، بل في القلب الذي يوجهه.

الإيمان الذي يصنع شبكة نجاة

إن ترتيب الآية يكشف اكتمال بناء الإنسان: إيمان يحدد وجهته، وصبر يضمن استمراره، ورحمة تضبط علاقته بالخلق. فإذا غاب الإيمان فقد العملُ مركزه الأعلى ومعياره الأخير، وإذا غاب الصبر

انطفأ العمل عند أول عقبة، وإذا غابت المرحمة تحول التدين إلى صلابة خالية من الدفء. أما اجتماعها فيصنع مؤمناً يعرف الله، ويحمل الطريق، ويحتضن الإنسان.

ثم إن السورة لا تريد فرداً صالحاً فحسب، بل شبكة نجاة؛ فالتواصي فعل اجتماعي. المجتمع المتراحم ليس مجتمعاً بلا آلام، لكنه مجتمع لا يُترك فيه المتألم وحده؛ وليس مجتمعاً بلا فقر بالضرورة، لكنه لا يتعاش أخلاقياً مع الجوع كأنه قدر لا شأن له به؛ وليس مجتمعاً بلا خطأ، لكنه يفتح أبواب الإصلاح ولا يحول الزلات إلى قبور اجتماعية.

وفي المجتمع الذي غابت منه المرحمة قد توجد مؤسسات كثيرة وقوانين صارمة، لكنه يبقى بارداً؛ يعرف الإنسان فيه حقوقه على الورق، لكنه لا يجد قلباً حين تنكسر روحه. وقد توجد فيه وفرة هائلة، لكن المسكين ذو المتربة يظل خارج مجال الرؤية؛ لأن المشكلة لم تعد نقص الموارد وحده، بل فساد توزيع الانتباه والرحمة. الجوع أحياناً

ليس دليل أن الطعام غير موجود، بل دليل أن القلب الذي يوصله قد غاب.

والتواصي بالرحمة يصنع حساسيةً جماعيةً تجاه الألم؛ فلا يحتاج اليتيم في كل مرة إلى رفع صوته حتى يُرى، ولا يُجبر الفقير على عرض عوزه في سوق الشفقة، ولا يُترك المظلوم يثبت إنسانيته قبل أن يُسمع. المجتمع الرحيم يتعلم أن يبحث عن المنكسرين الذين يمنعهم حيائهم من الطلب، وأن يقرأ الصمت كما يقرأ الكلام، وأن يعرف أن بعض الناس يقولون «نحن بخير» لأنهم لا يحتملون إذلال السؤال، لا لأنهم لا يحتاجون.

لكن الرحمة المؤسسية لا تغني عن القلب الفردي، كما أن القلب الفردي وحده لا يكفي لبناء عدالة مستدامة. ينبغي أن تتحول الرحمة من شعور إلى نظام يحفظ الضعفاء، ومن مبادرة مؤقتة إلى مؤسسات راسخة، ومن تبرع عند الكوارث إلى ثقافة تمنع صناعة الكارثة. فالذي يطعم الجائع قد أنقذ يومه، والذي يسهم في إقامة عدل يحفظ له حق

الطعام قد حمى أيامه القادمة؛ وكلاهما من الخير، ولا ينبغي لأحدهما أن يكون ذريعة لترك الآخر.

والقرآن حين يبدأ بفك الرقبة يوقظ معنى التحرير النبوي، وحين يذكر الإطعام يقرر ضرورة الاستجابة للحاجة العاجلة، وحين يذكر التواصي ينقل القيم إلى وعي الجماعة. إنها حركة متكاملة: إنقاذ الإنسان من القيد، وسد حاجته الملحة، ثم بناء بيئة إيمانية تحفظ الحرية والكرامة والرحمة من الارتداد.

والتواصي لا يعني أن يكرر المجتمع الكلمات نفسها حتى تفقد أثرها، بل أن يبتكر لكل زمن الوسائل التي تجسد الصبر والرحمة دون أن يغير أصل القيم. فقد تكون الرحمة في زمن ما إطعاماً مباشراً، وفي زمن آخر تعليمًا يحمي جيلاً من الفقر، أو علاجاً يعيد مريضاً إلى حياته، أو تشريعاً يمنع استغلال العمال، أو كلمة عامة تدفع عن فئة ضعيفة ظلماً معنوياً. تبقى القيمة واحدة، وتوسع صور تنزيلها بقدر ما تتجدد حاجات الإنسان.

الإنسان ينسى؛ ولذلك يحتاج إلى من يوصيه. ينسى أنه كان ضعيفاً حين يقوى، وفقيراً حين يغتنى، ومحتاجاً إلى العفو حين يملك أن يعاقب. وينسى أن الطريق الذي يسير فيه ليس ملكه وحده، وأن الذين تأخروا عنه قد يكونون مثقلين بما لا يراه. والتواصي هو ذاكرة الجماعة الحية؛ يعيدها كل مرة إلى أصلها، ويمنع النعمة من أن تتحول إلى غرور، والقوة إلى بطش، والألم إلى قسوة.

وقد ينسى المجتمع المرحمة حين يعيش طويلاً تحت الخوف؛ إذ تدفعه الحروب والأزمات إلى الشك في الآخرين والانغلاق على النجاة الخاصة. وهنا يصبح التواصي بالمرحمة مقاومةً لانتصار الكارثة داخل النفوس. ليست الحرب وحدها ما يهدم المدن؛ قد تهدم قدرة الناس على الثقة والتعاطف، وتزرع فيهم منطناً يقول: إما أن تنجو أنت وإما أن ينجو غيرك. والمرحمة ترفض هذا التقابل، وتقول إن نجاتك الأخلاقية مرتبطة بألا تبني سلامتك من أنقاض الآخرين.

كما قد ينسى المجتمع الصبر في زمن السرعة؛ يريد نتائج فورية، وعلاقات بلا كلفة، وتغييراً بلا تضحية، وإيماناً يمنحه السكينة دون أن يطالبه بالمجاهدة. لكن النفس لا تُبنى بنقرة، والجراح العميقة لا تلتئم بأمر، والألم لا تنهض بخطاب واحد. التواصي بالصبر يعيد إلى الزمن قيمته، ويعلم الإنسان أن النضج لا يُستعجل، وأن بعض الانتصارات الكبرى تحدث ببطء لا تلتقطه العين المتعجلة.

وإذا كان الفرد يحتاج إلى من يوصيه، فإنه مسؤول أيضاً عن أن يكون مصدر تثبيت ورحمة لغيره. لا يسأل المؤمن فقط: من يقف معي؟ بل يسأل: من يحتاج أن أقف معه؟ ولا يقول: لماذا لم يفهم أحد ألمي؟ دون أن يراجع نفسه: أي ألم مررت به ولم أفهمه؟ إن التواصي يخرج الإنسان من مركزية الجرح الشخصي إلى تبادل الرعاية؛ فلا يبقى كل فرد ينتظر من المجتمع أن يرحمه بينما لا يسهم هو في صناعة الرحمة.

الرحمة التي تعبر حدود الاستحقاق

من أسهل صور الرحمة أن ترحم من تحبه ومن ترى أنه يستحق؛ لكن العقبة تظهر حين تقف أمام شخص لا يمنحك قلبك نحوه اندفاعاً

طبيعياً. قد يكون مخالفاً، أو جافياً، أو شخصاً أخطأ ثم ندم، أو إنساناً لا يعرف كيف يعبر عن ألمه بطريقة محببة. هنا تختبر الرحمة: هل هي استجابة للراحة النفسية التي تجدها في بعض الناس، أم مبدءاً يتجاوز مزاجك؟

لا تعني الرحمة إسقاط المسؤولية عن المسيء، لكنها تعني ألا يتحول الحساب إلى إنكار لإنسانيته. فالإنسان قد يكون مذنباً ومحتاجاً إلى عدل، لكنه يظل محتاجاً إلى باب توبة؛ وقد يكون مخطئاً في موقف، لكنه ليس خطأً يمشي على قدمين. حين تُختزل الشخصيات في زلاتها يصبح المجتمع سجنًا لا يخرج منه أحد، وحين تلغى الزلات باسم الرحمة يصبح المجتمع فوضى. التوازن القرآني يحفظ الحق دون أن يقتل الرجاء.

والمرحمة لا تتناقض مع كرامة من يمارسها؛ فالرحيم ليس شخصاً يسمح للجميع باستباحته، وإنما إنسان لا يسمح للأذى الذي أصابه بأن يحدد أخلاقه. قد يبتعد عن المؤذي، ويضع الحدود، ويطلب الحق، لكنه لا يجعل قلبه بيتاً دائماً للكراهية. إنه يحمي نفسه دون أن يتحول إلى نسخة ممن آذاه، ويسترد حقه دون أن يفقد إنسانيته في الطريق.

وهذا لون من أعرس الاقتحام: أن ينتصر الإنسان على خصمه دون أن يخسر قلبه، وأن يخرج من الظلم أكثر وعياً بالعدل لا أكثر شغفاً بالانتقام، وأن تترك فيه الجراح بصيرةً لا سماً. ليس المطلوب أن ينسى ما وقع أو يسمي الباطل حقاً، وإنما ألا يسمح للماضي أن يستعبد مستقبله. فك الرقبة قد يبدأ أحياناً من فك القلب من قيد الضغينة التي ربطته طويلاً بمن أساء إليه.

لماذا الصبر قبل الرحمة؟

قد يكون تقديم الصبر على الرحمة لأن الرحمة نفسها تحتاج إلى صبر؛ فالتناس ليسوا دائماً سهلين، والضعيف قد تدفعه جراحه إلى تصرفات حادة، واليتيم قد يعبر عن فقدته بغضب، والمسكين قد يرهقه الذل حتى يعجز عن إظهار الامتنان بالصورة التي ينتظرها المعطي. ومن يرحم طلباً للشعور الجميل قد يتوقف حين لا يجد الاستجابة الجميلة؛ أما من يرحم لله فإنه يصبر على تعقيد الإنسان، ولا يجعل حسن المعاملة ثمناً مسبقاً لرحمته.

وقد يكون في الترتيب تعليم أن الرحمة ليست بديلاً عن تحمل مشقة الحق. فقبل أن يطالب المؤمن العالم بأن يكون لطيفاً معه، عليه أن يصبر على واجبه؛ ثم وهو يصبر لا ينسى أن يرحم. إن بعض الناس يتذرع بالرحمة ليتهرب من الانضباط، وبعضهم يتذرع بالصبر والانضباط ليبرر قسوته؛ فجاء الجمع القرآني ليغلق بابي الانحراف.

والصبر صفة تحرس الذات من الانهيار، والمرحمة صفة تحرس علاقتها بالآخرين من التوحش. الأول يقيم عمود الإنسان الداخلي، والثانية تفتح نوافذه على الخلق. فإذا قام العمود دون النوافذ صار القلب حصناً مظلماً، وإذا فُتحت النوافذ دون عمود تهدم البناء عند أول عاصفة. وباجتماعهما يصبح المؤمن بيتاً آمناً: ثابت الأساس، مفتوحاً للنور.

من أصحاب الأعمال إلى أصحاب الميمنة

تعد هذه الآية المعبر الذي تنتقل عنده السورة من ذكر الأعمال إلى إعلان الهوية والمصير. فهؤلاء الذين اقتحموا العقبة، وآمنوا، وتواصوا بالصبر والمرحمة، لن يبقوا بلا اسم؛ ستقول الآية التالية: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

المِئْمَنَةُ . وكأن الميمنة لا تبدأ في الآخرة فحسب، بل تُبنى هنا، في كل رقبة فُكت، وكل جائع أُطعم، وكل يَتيم قُرب، وكل قلب أوصي بالصبر، وكل علاقة سقتها المرحمة.

إن جهة الإنسان الأخيرة تتشكل من جهاته اليومية. كل اختيار صغير يضعه قليلاً نحو الميمنة أو المشأمة؛ كل مرة ينتصر فيها للشح يثقل انحداره، وكل مرة يقتحم فيها نفسه يفتح باب الصعود. والمصير ليس حادثاً منفصلاً يسقط على الإنسان من خارج سيرته، بل انكشاف الطريق الذي كان يسير فيه وإن أخفت عنه الدنيا نهايته.

والذين آمنوا لا يصبحون من أصحاب الميمنة بمجرد الاسم، بل لأن الإيمان أعاد تشكيل علاقتهم بالقدرة والمال والإنسان. لم يعودوا يقولون: لن يقدر علينا أحد، لأنهم عرفوا قدرة الله؛ ولم يعودوا يقولون: أهلكنا مآلاً لبدأ، لأنهم تعلموا أن العطاء عبادة لا مباحاة؛ ولم يعودوا يحسبون أن لم يرههم أحد، لأن عين الله حررتهم من أعين الناس؛ ثم استعملوا أعينهم في رؤية الضعيف، وألسنتهم في التواصي، وأيديهم في فك القيد وإطعام الجائع.

وهكذا تظهر الوحدة العميقة للسورة: كل نعمة ذُكرت في بدايتها تجد وظيفتها هنا. العينان اللتان خلقهما الله لا تكتمل شكرهما إلا بأن تريا مواضع الحاجة، واللسان والشفقتان لا يستقيم أمرهما إلا حين يتواصى بهما الإنسان بالصبر والمرحمة، والهداية إلى النجدين لا تحقق غايتها إلا حين يختار الإنسان طريق العقبة، والمال لا يزكو بكثرته بل بقدر ما يفك من قيد ويدفع من مسغبة.

ليست الآية، إذن، إضافة روحية بعد برنامج اجتماعي، بل هي الروح التي تجمعه. الإيمان يربط الفعل بالله، والصبر يربطه بالزمان، والمرحمة تربطه بالإنسان. وهذه الروابط الثلاثة تنقذ العمل من ثلاثة أخطار: ينقذه الإيمان من الرياء والعبث، وينقذه الصبر من الانقطاع، وتنقذه المرحمة من القسوة والاستعلاء.

وعند هذه الذروة يتبين أن العقبة لم تكن فعلاً واحداً يؤديه الإنسان ثم يظن أنه وصل، بل تحولاً كاملاً في مركز حياته: من ذاتٍ تجمع إلى روح تبذل، ومن قوة تستعلي إلى قدرة تحرر، ومن مال يصنع الشهرة إلى رزق يصنع الشيع، ومن لسان يعدد المآثر إلى لسان يثبت

القلوب، ومن صبر فردي صامت إلى تواصلٍ يحمي المجتمع، ومن رحمة عابرة إلى مرحلة يتعاهدها المؤمنون.

هؤلاء لا يتركون الإنسان تحت القيد ثم يعظونه بالحرية، ولا يتركونه جائعاً ثم يحدثونه عن فضيلة الصبر، ولا يخذلون الإيمان في شعور لا يغادر الصدر. إنهم يفكون أولاً، ويطعمون، ثم يصحبون الضعيف في طريقه؛ يحملون جسده بالخبز، وروحه بالرحمة، وإرادته بالصبر، ويصلون ذلك كله بالله. ولهذا استحقوا أن تنتقل إليهم إشارة البعد المفعممة بالتعظيم: ﴿أُولَئِكَ﴾، كأنهم ارتفعوا باقتحامهم حتى صار مقامهم عالياً، وإن كانوا في الأرض يخنون فوق جرح مسكين.

إن أعظم الناس علواً في سورة البلد هم أكثرهم انخاءً على الضعفاء، وأقواهم من جعل قوته ملاذاً لا سوطاً، وأغناهم من تحرر بماله من عبودية المال، وأصبرهم من لم تحوله المشقة إلى حجر، وأرحمهم من لم يجعل رحمته انفعالاً موسميّاً، بل عهداً يتواصى به مع المؤمنين. هؤلاء عبروا العقبة مرتين: عبروها حين غلبوا شخ أنفسهم، وعبروها حين حملوا معهم من أثقلتهم القيود والمسغبة واليتم والمترية.

وبهذا تُعدُّنا السورة للشهد الأخير، حيث ينقسم الناس لا بحسب الصور التي صنعوها في الدنيا، ولا بحسب ما امتلكوا من أكوام المال، ولا بحسب مقدار نفوذهم في البلد، بل بحسب الطريق الذي اختاروه: أصحاب ميمنة حملوا الإيمان والصبر والرحمة، وأصحاب مشأمة كفروا بآيات الله وأغلقوا أبوابهم دون الضعفاء، حتى أغلقت عليهم النار من كل جانب.

هناك، عند خاتمة السورة، لن يبقى الحسبان؛ سيزول وهم: ﴿أَنَّ لَّنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وينكشف أن الله رأى كل شيء، وأن العقبة التي بدت شاقة كانت طريق النجاة، وأن المنحدر الذي بدا سهلاً كان يقود إلى النار المؤصدة.

الفصل السادس

الْمَيْمَنَةُ وَالْمَشَآئِمَةُ: حِينَ يَصِيرُ الطَّرِيقُ مَصِيرًا

تأملات في قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ
الْمَشَآئِمَةِ ۖ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌ﴾

تصل سورة البلد إلى خاتمتها بعد رحلة قصيرة في عدد آياتها، بعيدة الغور في حقيقتها: بدأت ببلدٍ حرام، ومرّت بإنسان خلق في كبد، ثم كشفت غروره بقوته وماله، وذكّرت بالعينين واللسان والشفتين، وأرته النجدين، وأوقفته أمام العقبة، ثم دلته على أن اقتحامها يكون بفك الرقاب وإطعام الجائعين والإيمان والتواصي بالصبر والرحمة؛ وها هي الآن تكشف نهاية الطريقين، فلا يبقى النجدان احتمالين مفتوحين، بل يصير كل واحد منهما مصيراً لا يفارقه أصحابه.

إن الحياة في أولها إمكان، وفي آخرها نتيجة؛ وبين الإمكان والنتيجة تكتب الاختيارات حقيقة الإنسان. ما دام المرء حياً فهو قادر - بإذن

الله - على أن يغير وجهته، وأن يعود من المنحدر، وأن يضع قدمه على العقبة، وأن يستدرك ما أهدره من عمره في الدوران حول ذاته. لكن الموت يختم زمن الاختيار، وعندئذ لا يعود الطريق قابلاً للتبديل؛ يصبح ما كان يفعله الإنسان في الخفاء وجهه الظاهر، وتتحول الأعمال المتفرقة إلى جهة، والجهة إلى صحبة، والصحبة إلى مصير.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾

تبدأ الخاتمة بإشارة التكريم: ﴿أُولَئِكَ﴾. والإشارة إلى البعيد هنا تشعر بعلو المنزلة؛ فكأن أولئك الذين انحنوا في الدنيا فوق رقبة مقيدة، أو قربوا الطعام إلى يتيم، أو نزلوا إلى مسكين أذله الفقر وألصقه بالتراب، قد ارتفعوا عند الله حتى استحقوا مقام الإشارة البعيدة. كانوا قريبين من الضعفاء في الأرض، فصاروا عالين في ميزان السماء؛ ونزلوا بأيديهم إلى المتربة، فارتقت بهم الرحمة إلى الميمنة.

وأصحاب الميمنة هم أصحاب اليمين والسعادة والبركة، الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويُعطون كتبهم بأيمانهم، ويساقون إلى كرامة الله ورضوانه. واللفظ لا يصف لحظة عابرة، بل صحبة وملازمة؛ فهم

أصحاب هذه الجهة، كأن الميمنة صارت موطنهم الذي ينتسبون إليه، بعدما كانت اختياراتهم اليومية تتجه بهم نحوها خطوةً بعد خطوة.

والإنسان لا يصبح من أصحاب الميمنة في اللحظة الأخيرة بالمصادفة؛ إن الميمنة تُبنى في الدنيا حين يختار يمين المعنى لا يسار الهوى، وحين يقدم ما عند الله على ما عند النفس، وحين يجعل قوته مأمنًا للضعيف، وماله حياةً للمحتاج، ولسانه أداةً للتواصي، وقلبه موطنًا للصبر والرحمة. كل عمل من أعمال العقبة كان إعداداً لهذه الجهة الأخيرة، وكل انتصار على الشح كان انتقلاً صغيراً نحوها.

وإنما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حتى لا يظن أحد أن النجاة تتحقق بمجرد عمل إنساني منفصل عن الإيمان، أو بدعوى إيمانية لا تصدقها الرحمة. أصحاب الميمنة هم الذين اجتمعت فيهم حقيقة الاعتقاد وأثرها؛ آمنوا بالله، فتعاملوا مع عباده على ضوء إيمانهم، وعرفوا الآخرة، فلم يجعلوا الدنيا ميداناً للاقتراس، وأيقنوا بالحساب، فلم يحتقروا لقمةً يدفعون بها جوعاً ولا كلمةً يثبتون بها قلباً.

إن الإيمان الذي لا يغير موقع الضعيف في وعي صاحبه يظل محتاجاً إلى أن يسأل نفسه عن مقدار حضوره في الحياة. ليس المقصود أن المؤمن معصوم من التقصير، ولا أن الرحمة وحدها تختصر الدين كله، وإنما المقصود أن الإيمان الحي لا بد أن يثمر؛ وإذا طال بقاء البذرة دون أثر وجب على صاحبها أن يفتش عن الحجاب الذي حال بينها وبين النماء.

وهؤلاء صاروا أصحاب الميمنة لأنهم لم يطلبوا النجاة منفردين. لقد حملوا معهم آخرين: حرروا رقبة، وأطعموا جائعاً، ورعوا يتيماً، وقربوا مسكيناً، وتواصوا مع المؤمنين. والطريق إلى الميمنة في هذه السورة ليس ممراً فردياً ضيقاً يركض فيه الإنسان وحده، بل صعود تتشابك فيه الأيدي؛ كلها أعان المرء غيره على النهوض ارتفع هو، وكلها خفف حملاً عن منكسر خفّ حملة عند الله.

وهنا ينكشف قانون قرآني عظيم: أن إنقاذ الآخرين جزء من إنقاذ النفس. لم يقل القرآن إن المتصدق يمنح الفقير شيئاً ويبقى هو كما كان؛ بل المتصدق يتزكى، والمحرر يتحرر، والراحم يُرحم. المحتاج لا يأخذ

الطعام وحده، بل يمنح المعطي فرصة اقتحام شخه؛ واليتيم لا يتلقى الحماية وحدها، بل يفتح للكافل باباً إلى رقة القلب؛ والمسكين ذو المتربة لا يُرْفَع وحده من التراب، بل يرفع معه إنساناً كان يمكن للhal أن يثقله حتى يسقط.

والميمنة ليست مكافأةً مادية مجردة، بل توافق بين باطن الإنسان ومقامه. من جعل حياته جهةً للخير صار في الجهة التي تليق به، ومن أحب الرحمة وحققها صار في دار الرحمة. الجزاء هنا ليس غريباً عن العمل، بل هو اكتمال له وانكشاف لجوهره. كان المؤمن في الدنيا يبني الميمنة وهو لا يراها كاملة، فإذا جاء يوم القيامة وجد أنه لم يكن يرسل خياراته إلى فراغ، بل كان يبني بها موطنه الأبدي.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾

في الجهة المقابلة تقف الفئة الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾. لم تصفهم السورة هنا بأنهم الذين لم يطعموا فحسب، أو لم يفكوا الرقاب وحده، بل رَدَّت انحرافهم إلى أصله الأكبر: الكفر بآيات الله. فقد ظهرت لهم دلائل الربوبية في أنفسهم: عيان، ولسان، وشفتان؛

وظهرت لهم دلائل الهداية: النجدان؛ وجاءهم البيان بالطريق الذي ينبغي اقتحامه؛ لكنهم ستروا الحقيقة وحدها، أو أعرضوا عنها، فلم تدخل الآيات إلى موضع الانقياد من نفوسهم.

والآيات هنا تشمل آيات الله المتلوة التي جاء بها الوحي، وتشمل دلائله الدالة عليه في الخلق والإنسان. العين آية، واللسان آية، والقدرة على التمييز آية، واحتياج الإنسان نفسه آية، والبلد الحرام بما يحمله من تاريخ الرسالة آية. عاشوا محاطين بالآيات، لكن القرب المكاني لا يضمن القرب القلبي؛ فقد يسكن الإنسان إلى جوار المقدس وقلبه بعيد، ويحفظ ألفاظ الحق دون أن يسمح لها بأن تقتحم عاداته ومصالحه.

والكفر ليس نقص معلومة فحسب، بل موقف وجودي. قد يعرف الإنسان ثم يرفض؛ وقد تقوم الحجة أمامه لكنه يستثقل ما تطالبه به؛ وقد لا يناقش الحق لضعف دليله، بل لأنه يهدد البناء الذي أقامه حول ذاته. إن الاعتراف بأن الله قادر عليه يهدم وهم استعلائه، والاعتراف بأن الله يراه يهدم أمانه الكاذب في السر، والاعتراف بأن

المال أمانة يهدم حقه المزعوم في التبذير والتفاخر، والاعتراف بأن الضعيف له حق يهدم نظاماً كاملاً من الأنانية. لذلك قد يقاوم الإنسان الآية لا لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما يريد.

وفي مقابل الذين آمنوا وتواصوا، يقف الذين كفروا بآيات الله؛ وفي هذا التقابل يظهر أن الإيمان لا يبقى في القلب سرّاً بلا أثر، كما أن الكفر لا يبقى موقفاً ذهنياً معزولاً. كلاهما يصنع طريقةً في رؤية الإنسان والعالم. المؤمن يرى النعمة أمانة، والكافر بها يراها ملكاً مطلقاً؛ المؤمن يرى الضعيف أخاً وامتحاناً، والمتكبر يراه هامشاً أو أداة؛ المؤمن يرى قدرته تحت قدرة الله، والمغرور يتصرف كأن لن يقدر عليه أحد.

وقد يكون لدى المكذب صور من البذل الظاهر، فيقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، لكن السورة تكشف أن كثرة المال المخرج لا تحجب فساد القلب. فالعمل لا يتركي بمقداره وحده؛ إذ يمكن أن يُنفق المال في الصد عن الحق، أو شراء الضمائر، أو تثبيت الظلم، أو صناعة المجد الزائف. وقد يطعم الطاغية بعض الجائعين بعدما كان نظامه سبباً

في تجويعهم، ثم يتخذ من الطعام صورةً تبرر استمرار القيد. أما اقتحام العقبة فيبدأ بفك الرقبة، لا بتجميل السلسلة.

وفي إضافة الآيات إلى الله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مهابة تقطع كل توهّم؛ فهذه ليست أفكاراً بشرية قابلةً لأن يتعامل معها الإنسان باستخفاف، وإنما آيات الله الذي خلقه في كبد، وجعل له العينين واللسان والشفيتين، وهده النجدين. إن الذي يكفر لا يرفض شيئاً غريباً عنه فقط، بل يجحد دلالات تحيط بوجوده وتقوم عليها قدرته على الجحود نفسها. يستعمل اللسان الذي خلقه الله في إنكار الله، وينظر بالعينين اللتين وهبها الله ثم يزعم أنه لا يرى آياته، ويتحرك في أرض الله كأنه خرج من ملكه.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾

جاء ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ليؤكد نسبتهم إلى هذه الجهة: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾. والمشأمة هي جهة الشمال والشؤم والشقاء، في مقابل الميمنة بما تحمله من اليمن والسعادة والبركة. وهؤلاء لم يصبخوا أصحاب المشأمة لأن الله ظلمهم، تعالى الله عن الظلم، بل لأنهم اختاروا

طريقها حين ظهرت لهم النجدان؛ فالمصير كشف لاختيارهم، والجزاء عدل يضع كل إنسان في الجهة التي صنعها لنفسه.

لقد وُضع الإنسان أمام نُجدين، لا أمام طريق واحد أُجبر عليه؛ ومُنح ما يدرك به، وجاءه ما يهديه، ثم تركت له مساحة التكليف. وهذا ما يمنح الاختيار ثقله؛ فالحرية ليست متعة الانفلات من الحدود، بل مسؤولية صنع الجهة التي ينتهي إليها الإنسان. كل «نعم» يقولها للحق تبني شيئاً من ميمنته، وكل إصرار على الجحود يفتح في طريق المشأمة خطوةً جديدة.

وأصحاب المشأمة هم الذين اختاروا المنحدر حين استثقلوا العقبة. ربما بدا لهم طريقهم في الدنيا أكثر سهولة: المال يبقى في أيديهم، والقوة تخدم غرورهم، والضعيف لا يكلفهم شيئاً، والضمير يُسكت بالتبرير. لكن السهولة العاجلة كانت تخفي النهاية الثقيلة. أما أصحاب الميمنة فقد حملوا مشقة الاقتحام في الدنيا، فوجدوا الراحة عند انتهاء الطريق. وهكذا تنقلب الموازين: من طلب الراحة الكاملة في موضع الكبد انتهى إلى العذاب، ومن قبل كبد الطاعة والرحمة عبر إلى دار السلام.

إن طريق المشأمة لا يبدأ دائماً بفعل صاحب ظاهر؛ قد يبدأ بتبلد صغير تجاه ألم إنسان، أو بتأجيل متكرر للحق، أو بمنّة تفسد العطاء، أو بكلمة تسحق ضعيفاً، أو بنظرة تجعل المال مقياساً للقيمة. ثم تتراكم الاختيارات حتى تصبح طبعاً، ويصبح الطبع طريقاً، والطريق مصيراً. الشر الكبير كثيراً ما يبنى من تنازلات صغيرة لم ينتبه صاحبها إلى اتجاهها.

وكذلك طريق الميمنة لا يبدأ دائماً ببطولة يراها العالم؛ قد يبدأ بلقمة في يوم مسغبة، أو ستر يتيماً، أو كف كلمة جارحة، أو تذكير بالصبر، أو رحمة بإنسان أخطأ ثم أراد النهوض. الأعمال الصغيرة لا تبقى صغيرة إذا كانت تضبط وجهة القلب، وما قد لا يلتفت إليه الناس قد يكون عند الله لحظةً فاصلةً بين إنسان ظل يدور حول نفسه وإنسان بدأ اقتحام العقبة.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾

تجيء الآية الأخيرة قصيرة حاسمة، كأن الكلمات نفسها تغلق الباب: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾. والمؤصدة هي المطبقة المغلقة إحكاماً؛

فلا منفذ منها، ولا باب يرجى انفتاحه، ولا أفق يلوح وراء جدرانها. وقد جاء تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليصور النار محيطاً بهم واقعةً فوقهم، ثم جاءت كلمة ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ خاتمةً بصوتها الثقيل، كأنها إيصاد أخير ينتهي معه زمن الرجوع.

إن نهاية السورة ليست مجرد نار، بل نار مغلقة؛ وهذا يناسب مساراً من الإغلاق بدأه الإنسان في الدنيا. أغلق قلبه دون الآيات، وأغلق يده دون المحتاج، وأغلق بابه دون اليتيم، وأغلق سمعه عن الوصية، وأغلق على نفسه داخل وهم القوة، حتى انتهى إلى نار أغلقت عليه. إن الجزء من جنس العمل في بعده المعنوي؛ فمن جعل حياته إيصاداً في وجه الحق والرحمة وجد الإيصاد في خاتمة الطريق.

لقد كان يستطيع في الدنيا أن يفتح: أن يفتح عينيه على الآيات، ويفتح قلبه للإيمان، ويفتح يده بالطعام، ويفتح باب الحرية للمقيد، ويفتح لسانه بالتواصي. كانت أمامه أبواب كثيرة، وكان يملك زمناً للاختيار، لكنه اختار الإغلاق مراراً، حتى أتى اليوم الذي لم يعد المفتاح في يده.

وفي كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سقوط لوهم القوة الذي واجهته السورة في بدايتها: ﴿أَيَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾. ها هو الذي حسب نفسه فوق القدرة تصبح النار عليه؛ والذي ظن أنه لا يُحاط به أُحيط من كل جهة؛ والذي توهم أنه يملك فتح الأبواب وإغلاقها على الآخرين صار خلف باب لا يملك فتحه. تتبدل المواقع، وتسقط السلطة الموهومة، ويظهر أن القوة كلها لله.

وكذلك يكشف جواب السؤال الثاني: ﴿أَيَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾. لقد رآه الله، ورأى المال الذي أهلكه، والنية التي أخفاها، والضعيف الذي تجاوزه، والباب الذي أغلقه، والكلمة التي آذت، والعقبة التي وقف أمامها ثم رجع. لم تضع التفاصيل، ولم يستطع ضجيج الرواية التي صنعها عن نفسه أن يحجب الحقيقة؛ لأن عين الله لا تتخدعها الأسماء ولا المظاهر.

إن وصف النار بأنها مؤصدة يحمل أيضاً معنى القوات النهائي؛ ففي الدنيا، مهما ضاق الإنسان بذنبه، يبقى باب التوبة مفتوحاً ما دامت الروح في الجسد. وقد يكون القلب موصداً ثم يفتحه الله بآية، وقد

تكون اليد مغلولة بالشح ثم نتعلم البذل، وقد يكون الإنسان في طريق المشأمة ثم يستدير بصدق. أما في الآخرة فقد انتهى زمن العمل، وصار الندم رؤيةً بلا قدرة على التغيير.

ولهذا فإن الإنذار القرآني ليس رغبةً في دفع الإنسان إلى اليأس، بل إنقاذ له قبل أن يأتي زمن اليأس. حين يصف الله النار فإنه لا يغلق باب النجاة في وجه من يسمع الآن، وإنما يريه الباب المغلق في النهاية حتى يفتح باب العودة في البداية. كل وعيد في القرآن يحمل في زمن التكليف رحمة التحذير؛ لأنه يخبر الإنسان بالحافة قبل أن يسقط، ويكشف له العاقبة قبل أن تصبح واقعاً.

وليس من الأمانة أن تُقرأ هذه الآية قراءةً تسلبها رهبتها؛ فالنار حق، وعذاب الآخرة حق، والقرآن لا يستعملها رمزاً نفسياً مجرداً، وإن كان للذنوب من ظلماتها وعقوباتها في الدنيا ما يذكر بنهايتها. إن الإيمان بالآخرة يمنح الأخلاق جديتها؛ فما يحدث في العالم ليس مسرحاً عبثاً تُطوى ستارته ثم يتساوى الظالم والمظلوم، وإنما تاريخ محفوظ يتبعه فصل عدل كامل.

وحين يغيب اليقين بالآخرة، قد تصبح الرحمة خياراً تجميلياً يمكن الاستغناء عنه إذا تعارضت مع المصلحة، وقد يصبح الظلم وسيلة ناجحة ما دام صاحبه أفلت من قانون الأرض. أما حين يحضر الحساب، فإن كل إنسان مستضعف يصبح قضيةً مفتوحةً أمام عدل الله، وكل دمعة لا شاهد عليها في الدنيا محفوظة، وكل قيد وضعه إنسان في عنق إنسان ينتظر لحظة السؤال.

إن النار المؤصدة تقول للطغاة إن أبوابهم الحديدية ليست نهاية الحكاية، وللمستضعفين إن الجدار الذي حبسهم ليس آخر أفق الوجود، وللمؤمنين إن الرحمة ليست سذاجةً في عالم القوة، بل هي الطريق الأبعد نظراً والأبقى مصيراً. ما يبدو قوةً اليوم قد يصير غداً عجزاً محكماً، وما يبدو خسارةً في البذل قد يصير باباً إلى الميمنة.

وبهذه الآية تنتهي السورة دون تفصيل في نعيم أصحاب الميمنة أو مشاهد النار؛ لأن المقصود هنا إبراز الجهتين في حسم شديد. لقد قيل للإنسان ما يكفي: هذه العقبة، وهذه وسائل اقتحامها، وهؤلاء أصحاب

الميمنة، وهؤلاء أصحاب المشأمة، وهذه النهاية المغلقة. لم يعد يحتاج إلى مزيد بيان، بل إلى قرار.

فالسورة لا تترك قارئها في موقع التأمل المحايد؛ إنها تسأله من خلال كل آية: أين أنت؟ ما العقبة التي لم تقتحمها؟ أي قيد تستطيع أن تفكه؟ أي جائع مررت به؟ أي يتيم قريب لم تره؟ أي مسكين ألصقه الفقر بالتراب وأبقاك الاعتياد بعيداً عنه؟ من الذي ينبغي أن تواسيه بالصبر، ومع من ينبغي أن تتعاهد على الرحمة؟ وأي باب في قلبك ينبغي أن تفتحه قبل أن يأتي زمن الأبواب المؤصدة؟

حِينَ يَصْعَدُ الْإِنْسَانُ بِمَا يَرْفَعُهُ مِنْ أَثْقَالِ الْآخِرِينَ

سورة البلد سورة قصيرة، لكنها لا تمر بالقلب مرور السور القصيرة؛ إنها تقيم في داخله كمدينة كاملة: في أولها بلد يحفظ ذاكرة النبوة، وفي طرفاتها إنسان يكابد وجوده، وفي أسواقها مال متراكم يتباهى صاحبه بإهلاكه، وفي زواياها يتيم قريب، ومسكين ألقى الفاقة بالتراب، وعلى أطرافها عقبة شاهقة، وفي نهايتها طريقان: ميمنة مفتوحة على الكرامة، ومشأمة تنتهي إلى نار مؤصدة.

وإذا أردنا أن نختصر رسالة السورة في سؤال واحد، فهو: ماذا فعلت بما منحك الله في عالم الكبد؟ لم تسألك السورة لماذا لم تعيش بلا مشقة، لأن الله أخبرك أن الإنسان خلق في كبد؛ ولم تسألك كم ملكت، بل كيف تعاملت مع ما ملكت؛ ولم تسألك كم رأيت، بل ماذا صنعت بما رأيته عينك؛ ولم تسألك كم تكلمت، بل هل جعلت لسانك طريقاً إلى الصبر والرحمة؛ ولم تسألك هل عرفت الخير، بل هل اقتحمت عقبته.

لقد أعادت السورة تعريف الحياة نفسها. فالحياة ليست رحلة بحث عن الراحة المطلقة، لأن الراحة الكاملة ليست من طبيعة دار الابتلاء؛ وإنما هي رحلة اختيار المعنى الذي يستحق أن نحمل مشقته. كل إنسان يتعب، لكن ليس كل تعب صعوداً؛ وكل إنسان ينفق من عمره، لكن ليس كل إنفاق نجاة؛ وكل إنسان يخسر شيئاً، لكن بعض الخسارات تفتح له أبواباً، وبعض المكاسب تبني حوله سجنًا لا يراه.

إن الكبد ليس حجة لليأس، بل تفسير لطبيعة الطريق. حين يعرف المؤمن أنه خلق في كبد، لا يفاجئه أن يحتاج الإيمان إلى مجاهدة، ولا أن تحتاج الفضيلة إلى ثمن، ولا أن تكون الرحمة أحياناً مؤلمة لصاحبها؛ فهو لا ينتظر من الصعود أن يشبه الهبوط. لكنه يعرف كذلك أن الله لم يتركه في مشقته بلا معنى ولا هدى: منحه العينين، واللسان والشفقتين، وهداه النجدين، وأنزل له الوحي، وجعل حوله مؤمنين يتواصلون بالصبر والمرحمة.

والخطر ليس في الكبد، بل في المعنى الذي يستخرجه الإنسان منه. قد تقول النفس بعد الألم: لقد عانيت، ولذلك يحق لي أن أقسو؛ وقد

يقول الإيمان: لقد عانيت، ولذلك أعرف لماذا ينبغي ألا أزيد آلام الآخرين. قد يجعل الجوع السابق صاحبه محتكراً يخشى العودة إلى الفقر، وقد يجعله قلباً يعرف أن اللقمة كرامة وحياة. قد تصنع المحنة طاغيةً صغيراً ينتظر لحظة القوة لينتقم من العالم، وقد تصنع رحيماً يقسم ألا يترك أحداً يذوق الوحدة التي ذاقها.

الألم لا يقدس الإنسان تلقائياً؛ إنه مادة مفتوحة لعمل الروح. والذي لا يعالج جرحه بالإيمان قد يجرح به غيره، والذي لا يحول ضعفه القديم إلى رحمة قد يستعمل قوته الجديدة في الانتقام من صورته السابقة. ولهذا كانت المرحمة ذروة في السورة؛ لأنها الدليل على أن الكبد لم يفسد القلب، وأن الصعود لم يجعل الإنسان يحتقر من لا يزالون في السفح.

وسورة البلد تهدم وهم القوة دون أن تهدم قوة الإنسان. إنها لا تريد منه أن يكون عاجزاً، بل أن يعرف أن قدرته أمانة تحت قدرة الله. القوة ليست خطيئة، وإنما الخطيئة أن يظن صاحبها أن لن يقدر عليه أحد؛ والمال ليس رجساً، وإنما الرجس أن يتحول إلى كومة يتباهى

الإنسان بإهلاكها بينما ينأى إلى جواره جائع؛ والجاء ليس فساداً في ذاته، وإنما يفسد حين يصبح سوراً يحمي الظلم بدل أن يكون باباً للحماية المظلوم.

إن أجمل القوة في منطق السورة هي القوة التي تفك قيلاً. وأشرف المال هو المال الذي يعبر من يد صاحبه إلى فم جائع دون أن يمر فوق كرامته. وأصدق اللسان هو الذي لا يتخذ من النصيحة منصةً للاستعلاء، بل يجعلها يداً خفيةً تسند المتعب. وأصفى الإيمان هو الذي يرى اليتيم قبل أن ينادي، ويشعر بالمسكين قبل أن يشرح حاجته، ويدرك أن الله الذي يراه في صلاته يراه كذلك وهو يعامل أضعف عباده.

وفي هذا تصحيح عظيم لموازين الدين؛ فالمسافة إلى الله لا تُقطع بالشعور وحده، بل تمر من حقوق خلقه. لا يستطيع المؤمن أن يزعم محبة الرحمة ثم يبقى قاسياً في المواضع التي مُنح فيها سلطة؛ ولا أن يتغنى بالعدل ثم يظلم في بيته أو عمله أو خصومته؛ ولا أن يطلب من الناس

الصبر بينما يحتفظ وحده بكل أسباب الراحة التي يستطيع مشاركتهم فيها.

إن قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ليس تويحاً لمن لم يقدم بطولةً خارقة، بل لمن بقي أسير نفسه مع أن أبواب الخير كانت أمامه. لم تطلب السورة من كل إنسان أن يحرر العالم وحده، لكنها طلبت منه أن يقتحم في حدود قدرته: أن يفك ما يستطيع من القيود، ويطعم من يستطيع من الجائعين، ويصل من يستطيع من الأيتام، وينهض بمن يستطيع من المساكين.

ولا يجوز للعجز عن فعل كل شيء أن يتحول إلى عذر لترك كل شيء. إن لقمة واحدة لا تنهي الجوع العالمي، لكنها تنهي جوع إنسان في لحظتها؛ وكلمة رحيمة لا تحو قسوة العالم، لكنها قد تمنع قلباً واحداً من الانهيار؛ وموقف عدل لا يسقط نظم الظلم كلها، لكنه يحمي إنساناً من أن يصبح رقماً آخر في سجل المقيهورين. والله لا يسأل الفرد عن قدرة لم يمنحه إياها، لكنه يسأله عن الباب الذي كان يستطيع فتحه فرب به مغلق القلب.

وتعلمنا السورة أن العقبة ليست أمام الفقراء وحدهم، بل قد تكون أمام الأغنياء أشد ارتفاعاً؛ لأن الفقير يجاهد الحاجة، والغني يجاهد وهم الاستغناء. والمحتاج يختبره نقص ما في يده، وصاحب المال يختبره فائض ما فيها. وكلاهما في كبد، لكن صورة الكبد تختلف. وقد ينجو فقير بصبره، ويهلك غني بشحه، وقد ينجو غني ببذله، ويسقط فقير بسخطه أو اعتدائه؛ فالعبرة ليست بالموقع الاجتماعي وحده، بل بالجواب الذي يقدمه الإنسان لامتحانته.

وإن من أخطر ما تكشفه السورة أن الإنسان قد ينفق الكثير ويبقى أسفل العقبة. يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، لكنه لم يتحرر من نفسه؛ لأن المال خرج من اليد ولم تخرج المنّة من القلب، أو لأنه أهلك في الباطل والرياء والصد عن الحق. فالإقتحام لا يقاس بضخامة النفقات، بل بصدق الوجهة، ونبل الأثر، ومقدار ما هُزم من الشح والكبرياء.

قد يعطي المرء فقيراً مالاً ثم يأخذ منه كرامته، وقد يبني مؤسسة باسمه ليظل المحتاج شاهداً على مجده، وقد يصور دموع المنكسرين كي تزيد أسهم صورته. هذا ليس الاقتحام الذي تنشده السورة؛ لأن

مقتحم العقبة لا يجعل من ظهر الضعيف درجةً لشهرته. إنه يرفعه، ثم يتوارى قدر استطاعته، ويعلم أن الله رآه، ولذلك لا يضيره ألا يراه أحد.

وهنا تتجلى الحرية العميقة التي يصنعها الإيمان بالمراقبة الإلهية. من عاش لأعين الناس ظل ينتظر تصفيقهم، ويخشى نقدهم، ويغير وجهه مع تغير مجالسهم. أما من استقر في قلبه أن الله يراه، فقد أصبح قادراً على العمل في الظل، وعلى الصدق حين لا توجد كاميرا، وعلى الرحمة حين لا توجد مكافأة، وعلى العدول عن الخطأ ولو لم ينكشف للناس.

إن رؤية الله للإنسان ليست حملاً يطارده، بل سماءً تحمي أعماله من الضياع. كم من خير لم يعرفه أحد، لكنه لم يرغب عن الله! وكم من إنسان أنقذ قلباً بكلمة ثم نسي الكلمة، لكنها بقيت في ميزانه! وكم من مظلوم ابتلع شكواه لأنه لم يجد من يسمعه، لكن الله سمع ما لم يخرج من لسانه! إن عدل الله هو الذي يمنح الأفعال الخفية معناها، ويمنع الكون من أن يصبح حكايةً يكتبها الأقوياء وحدهم.

ومن لطائف بناء السورة أنها بدأت بالبلد وانتهت بالنار المؤصدة. البلد فضاء تتحرك فيه الإرادة، والنار المؤصدة مكان انتهت فيه حرية الاختيار. في البلد يستطيع الإنسان أن يذهب إلى اليتيم والمسكين، وأن يفتح يده، وأن يعود إلى الله؛ أما هناك فقد أغلق الباب. وبين الانفتاح الأول والإغلاق الأخير يقع العمر كله. كل يوم هو باب، وكل توبة باب، وكل محتاج باب، وكل آية باب؛ والسعيد من عبر الأبواب المفتوحة قبل أن ينتهي إلى باب لا يملك فتحه.

وكان السورة تقول: لا توصل قلبك في الدنيا كيلا يكون الإيصاد مصيرك في الآخرة. افتحه للآية حين تسمعها، وللحق حين يتبين، وللتوبة حين تناديك، وللمحتاج حين يطرق بابك أو يمنعه حياؤه من الطرق. فالقلوب التي تتدرب على الانفتاح للرحمة تكون أليق بدار الرحمة، والقلوب التي تستمرئ الإغلاق تصنع في داخلها أول جدران الوحشة.

أما التواصي بالصبر والرحمة فهو المشروع الحضاري الذي تقترحه السورة لبناء المجتمع المؤمن. فالإيمان لا يعيش طويلاً في الأفراد إذا لم يتحول إلى مناخ جماعي يثبتهم؛ والصبر ينهار إذا ترك المبتلى وحده؛

والرحمة تضعف إذا صار المجتمع يمدح القسوة ويسمّيها قوة. لذلك يتواصى المؤمنون: لا لأن أحدهم مكتمل، بل لأن كلاً منهم يحمل نقصاً يسده أخوه.

إن المجتمع المتواصي بالصبر لا يسخر من المتعثر، بل يساعده على النهوض؛ ولا يطالب المظلوم بالصمت باسم الصبر، بل يدفع عنه الظلم ثم يعينه على الثبات؛ ولا يجعل المحنة شأنًا فرديًا معزولاً، بل يوزع حملها. والمجتمع المتواصي بالمرحمة لا يكتفي بالمشاعر، بل يبني القوانين والمؤسسات والعلاقات التي تحمي الضعيف من أن يصبح استثناءً منسياً.

فإذا كانت الرحمة مجرد دمعة أمام مشهد مؤلم ثم عادت الحياة إلى نظامها القاسي، فهي لم تبلغ بعد مقام الرحمة. الرحمة أن يصبح الضعيف حاضراً في القرار، وأن تُصان كرامته قبل حاجته، وأن يُنظر في السبب الذي أوقعه في المتربة، وأن يمتد العمل من إطعامه اليوم إلى حمايته من جوع الغد. هي رحمة القلب حين تتحول إلى عدل في الواقع.

وفي الوقت نفسه، تحذرننا السورة من رحمة منفصلة عن الإيمان والصبر. قد يرق القلب للحظة ثم يمل، وقد يندفع إلى مساعدة لا يحسنها، وقد يطلب نتيجةً عاجلةً فإذا لم يجدها ترك الطريق. أما الرحمة المؤمنة فتعرف أنها تتعامل مع عبيد الله، والرحمة الصابرة تعرف أن الإنسان معقد، وأن الجراح تحتاج إلى زمن، وأن البناء الحقيقي هادئ وطويل.

وهكذا يجتمع في أصحاب الميمنة قلب لا يقسو، وإرادة لا تنهار، وعقيدة لا تبدل، ويد لا تنغلق. ليسوا كائنات بلا ضعف، بل بشرًا يتواصون لأنهم يضعفون؛ ولا أبطالاً لا يحتاجون إلى غيرهم، بل جماعةً يعرف كل فرد فيها أن نجاته لا تكتمل في عزلة. وإذا سقط أحدهم لم يقف الآخرون حوله لتعداد أسباب سقوطه، بل ذكروه بالصبر وأحاطوه بالمرحمة، ثم ساعدوه على استئناف الاقتحام.

إن هذه السورة تعيد كتابة معنى النجاح. النجاح ليس من وصل وحده وترك خلفه أجساداً صعد فوقها، ولا من جمع مالاً لبداً ثم قضى عمره يحرسه، ولا من استطاع أن يجعل الناس يخافونه. النجاح أن تستعمل ما أعطاك الله لإعادة شيء من التوازن إلى العالم؛ أن تكون

العين التي ترى من يعتمد الآخرون عدم رؤيته، واللسان الذي ينطق حين يصمت الخائفون، واليد التي تفك القيد، والقلب الذي لا تسمح له المعاناة بأن يفقد الرحمة.

وهي تعيد كذلك تعريف الهزيمة. قد يُهزم الإنسان في معركة دنيوية ويبقى من أصحاب الميمنة؛ لأن ميزان الله لا يختصر النصر في النتيجة العاجلة. وقد ينتصر طاغية ويفرض اسمه على البلد، لكنه لم يتجاوز عقبة نفسه، فكان انتصاره الواسع هزيمةً في جوهره. ما قيمة أن يملك الإنسان مدينةً كاملةً إذا كان أسير شهوته؟ وما قيمة أن يفتح البلاد إذا بقي قلبه موصداً؟ وما قيمة أن يقدر على الناس إن كان عاجزاً عن كبح ظلمه؟

إن أرفع الفتوحات في سورة البلد أن يفتح الإنسان باباً أغلقه الشح، وأن ينتصر على الوحش الصغير المختبئ في نفسه، ذلك الذي يريد أن يأخذ ولا يعطي، وأن يرى ولا يرى الآخرين، وأن يُرحم ولا يرحم، وأن يجد من يصبر عليه دون أن يصبر على أحد. حين ينتصر الإنسان على هذه الذات الضيقة تبدأ إنسانيته الحقيقية.

ولعل كلمة العقبة تبقى بعد الفراغ من السورة كمرآة شخصية لكل قارئ. ليست عقبتك بالضرورة عقبة غيرك، ولا يكفي أن تقتحم الموضع الذي يسهل عليك ثم تهرب من موضعك العسير. قد يسهل على الكريم أن يعطي المال، لكن يصعب عليه كلمة اعتذار؛ ويسهل على الصبور أن يحتمل، لكن يصعب عليه أن يعبر عن الرحمة؛ ويسهل على العابد أن يخلو بربه، لكن يشق عليه احتمال الناس؛ ويسهل على الخطيب أن يتحدث عن العدل، لكن يصعب عليه أن يعدل حين يكون الحكم في يده.

فلا ينبغي للإنسان أن يختار من الفضائل ما يوافق طبعه ثم يظن أنه اقتحم العقبة كاملة. العقبة الحقيقية تقع غالباً عند الحد الذي تبدأ فيه النفس بالمقاومة واختراع الأعذار. هناك ينبغي أن يقف المرء طويلاً ويسأل: ما الذي أخشاه إن فعلت الحق؟ ماذا سأفقد؟ وما الشيء الذي أحميه في نفسي؟ هل هو مال، أم صورة، أم سلطة، أم راحة، أم رغبة في أن أكون دائماً المنتصر؟

وكلما صدق الإنسان في تسمية عقبته، اقترب من اقتحامها. أما من يكتفي بالحديث عن عقبات المجتمع والآخرين، فقد يستخدم الوعي ستاراً للهروب من نفسه. من السهل أن يرى طغيان الحكام، وقد يعجز عن رؤية طغيانه في بيته؛ ومن السهل أن ينتقد احتكار الأغنياء، ثم يحتكر هو كلمة المجلس وحق الآخرين في الاختلاف؛ ومن السهل أن يطالب العالم بالرحمة، ثم يكون أقرب الناس إليه أشدهم خوفاً من لسانه.

سورة البلد لا تسمح لنا بأن نخرج منها ونحن نشير إلى غيرنا فقط؛ إنها تقرب المرأة من الوجه. العينان اللتان تتحدث عنهما عينك، واللسان لسانك، والشففتان شففتك، والنجدان أمامك، والعقبة في طريقك، والمال الذي ستسأل عنه مالك، والضعيف الذي تراه امتحانك. وحين يأتي المصير لن تحمل معك ملفات الآخرين، بل جهة قلبك وأثر يديك.

ومع ذلك، فإن السورة لا تترك المؤمن في وحشة المحاسبة، بل تفتح أمامه صخرة جميلة: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. لا تصعد وحدك؛ ابحث عن الذين يذكرونك بالله إذا غفلت، وبالصبر إذا تعبت، وبالرحمة إذا قسا

قلبك. وكن أنت لهم كذلك. لا تجعل الصحبة تبادلاً للأحاديث فقط، بل تبادلاً للقوة الأخلاقية؛ يردُّ بعضكم بعضاً إلى العقبة كلما أغراكم المنحدر.

إن الإنسان يحتاج إلى من يقول له: لا تيأس، لكنه يحتاج أيضاً إلى من يقول له: لا تقسُ. يحتاج إلى الصبر كيلا ينكسر، وإلى المرحمة كيلا يتحول انكساره إلى أداة لكسر غيره. وبين الوصيتين ينمو القلب في توازن نادر: قوي بلا استعلاء، رقيق بلا وهن، ثابت بلا تحجر، رحيم بلا تفريط.

وعند نهاية السورة يقف القارئ أمام الاختيار في أقصى وضوحه: ميمنة أو مشأمة. لا منطقة ثالثة يختبئ فيها التردد إلى الأبد، ولا حياد أخلاقي بين القيد وفكه، وبين الجائع وإطعامه، وبين الإيمان والكفر بالآيات. قد يؤجل الإنسان إعلان موقفه، لكن التأجيل نفسه يتحول مع الزمن إلى موقف؛ ومن لم يقتحم العقبة فقد اختار البقاء أسفلها، وإن ظل يصف جمال القمة.

إن الميمنة لا تُتَمَل بالأُماني، والمشأمة لا تأتي بلا مقدمات. كلاهما يبدأ من هنا: من نظرة العين، وكلمة اللسان، وحركة اليد، ووجهة المال، وموقف القلب من الضعيف. الآخرة ليست عالماً منفصلاً عن هذا العالم، بل انكشاف كامل لما صنعناه هنا؛ هناك تصبح الرحمة التي اخترناها داراً، والقسوة التي أصررنا عليها إيصاداً، ويصير الطريق الذي مشيناه وطناً أبدياً.

فيا أيها الإنسان الذي خُلق في كبد: لا تنفق أملك في القسوة، ولا تنفق مالك في بناء صورتك، ولا تنفق عمرك في الدوران أسفل العقبة. اصعد، وإن ثقلت الخطوة؛ فإن كل خطوة إلى الله أوسع من ظاهرها، وكل يد ترفع بها منكسراً ترفعك، وكل لقمة تحفظ بها كرامة جائع تدخر لك معنى لا يفنى، وكل مرة تكف فيها أذى لسانك تفك رقبة قلب من كلمة ربما كانت ستأسره أعواماً.

افتح عينيك، لا لترى الطريق وحده، بل لترى من ينتظرون على جانبيه. وافتح لسانك للحق، وأغلق شفئك عن الأذى، ومد يدك إلى القيد قبل أن تحدث طويلاً عن الحرية، وإلى الجائع قبل أن تطالبه

بالصبر، وإلى اليتيم قبل أن تتحول وحشته إلى جرح في مستقبل كامل،
وإلى المسكين قبل أن يصير التراب في عينيه تعريفاً لقيمته.

ثم لا تفعل ذلك متفضلاً من برجك، بل مؤمناً بأنك المحتاج إلى
هذا الخير بقدر حاجة الآخر إليه؛ هو يحتاج إلى طعامك، وأنت تحتاج
إلى تزكية قلبك؛ هو يحتاج إلى فك قيده، وأنت تحتاج إلى فك قيد
الشح في نفسك؛ هو يحتاج إلى يدك اليوم، وربما احتجت غداً إلى
دعوته عند الله. لا يوجد في ميدان الرحمة معطٍ مكثفٍ وآخذ ناقص؛
بل عباد يتبادل الله بينهم أسباب فضله، ويفتح لكل واحد منهم باباً
إلى الآخر كي يبلغ به إليه.

وعندما يطول الطريق، فتواصوا بالصبر. وعندما تشتد المعركة،
فتواصوا بالمرحمة. لا تسمحوا للزمن أن يستنزف يقينكم، ولا للصراع أن
يسلبكم أخلاقكم، ولا للظلم أن يعيد إنتاج نفسه في أرواحكم. قاوموا الشر
دون أن يصبح جزءاً منكم، واطلبوا العدل دون أن تموت فيكم الرحمة،
واصبروا دون أن تتخذوا الصبر ذريعةً لترك المظلوم وحده.

ذلك هو الإنسان الذي تريد سورة البلد أن تبنيه: إنسان يعرف أنه مخلوق في كبد، فلا ينهار أمام المشقة؛ ويعرف أن الله قادر عليه، فلا يطغى؛ ويعرف أن الله يراه، فلا يرائي؛ ويعرف أن جوارحه عطايا، فلا يستعملها في الجحود؛ ويعرف النجدين، فلا يدعي ضياع الطريق؛ ويرى العقبة، فلا يقيم عمره في السفح؛ ويمتلك شيئاً من القوة، فيجعله تحريراً؛ ويمتلك شيئاً من الرزق، فيجعله إطعاماً؛ وينتمي إلى المؤمنين، فيجعل صحبته صبراً ورحمة.

فإذا فعل، كان من أصحاب الميمنة؛ لا لأن طريقه خلا من الكبد، بل لأنه حوّل الكبد إلى معنى، والمشقة إلى صعود، والنعمة إلى أمانة، والقدرة إلى رحمة، والعمر إلى أثر. وإذا أبى واستعلى وكفر وأغلق، فإن نهاية الإغلاق نار مؤصدة؛ لا ظلاً من الله، ولكن عدلاً يكشف للإنسان ما صنعه حين كانت الأبواب مفتوحة.

وهكذا تنتهي سورة البلد، لكنها لا تغلق خطابها داخل صفحات المصحف؛ بل تترك في حياة قارئها باباً مفتوحاً وسؤالاً لا يهدأ:

أيُّ عقبة تنتظر منك اليوم أن تقتحمها؟

تَمَّت - بحمد الله وفضله - الرحلة التدريبية في جميع آيات
سورة البلد، من الآية الأولى إلى الآية العشرين، واكتمل بناؤها
في مقدمة منهجية وستة فصول وخاتمة فكرية جامعة.